الخطاب الفلسفي.... منطلقاته ومحاوره
(عند محمد عثمان الخشت)

د. محمود كيشانه•

المقدمة

يعد المفكر الكبير محمد عثمان الخشت أستاذ فلسفة الدين والفلسفة الحديثة والمعاصرة، أحد القامات الفكرية العربية التي آلت على نفسها الجمع بين النظرة العقلية الغربية والتراث الإسلامي في معالجة القضايا الفكرية، وهي تلك النظرة التي كشفت عن العديد من الأفكار المهجورة في الفكر الإسلام، وفي علاقة الإسلام بالآخر والقضايا الفكرية الآنية، ويحسب له أنه موسوعي الثقافة مستنير الفكر. له العديد من المؤلفات التي تدرس في العديد من الجامعات، وتعالج العديد من فروع العلم: كأصول الدين والفقه ومقارنة الأديان، وعلم السياسة، والمجتمع المدني، وفلسفة المواطنة، وغيرها من فروع العلم التي تحاول أن ترسي فهمًا جديدًا للعديد من الإشكاليات المعاصرة، مستندة في ذلك إلى منهج وسطي عقلاني، يصطبغ بصبغة منطقية، وتعمق في العلوم الإنسانية والعلوم الشرعية. له ما يربو على الخمسين كتابًا، من أهمها: العقلانية والتعصب، الحد الأدنى المشترك، العقائد الكبرى، فلسفة المواطنة في عصر التنوير، المجتمع المدني، المعقول واللامعقول في الأديان.

لقد انتقى الخشت عددًا من القضايا الفكرية، وكأنه يريد أن يبين لنا مراكز القوة في فكرنا لنستند عليها ونطور في آدائنا من خلالها، وكذلك مواطن الضعف لنعمل على تقويتها والنهوض بها، لقد قارن الرجل في صبر وأناة بين أعلام

(•) د. محمود أحمد عبد الرحمن علي كيشانه، دكتوراه في الفلسفة الإسلامية.

(ISSN : 2536 - 9555)

الفلسفة الحديثة والمعاصرة أنفسهم، كما قارن بين الفلسفتين:الفلسفة الإسلامية والغربية مستخرجًا أوجه الاتفاق وأوجه الاختلاف بينهما، وكذلك فعل في بعض دراساته، نذكر منها بالخصوص: المشترك بين الأديان والفلسفة[1]، فلسفة العقائد المسيحية، الإسلام والعلم بين رينان والأفغاني[2].

لقد كان الدكتور الخشت لا يضع غير العلم في اعتباره، وهو بصدد بحث جديد أو كتاب جديد؛ إذ كان هدفه إشباع رغبته في العلم، ولذا لم تكن كتاباته وأبحاثه موجهة إلى طلاب الكلية بهدف الدراسة، وإنما كانت موجهة في الأساس إلى نشر الفكر الفلسفي، والتأكيد على ارتباط الفلسفة بالحياة. والحق أن هذه هي جهود العالم الحق الذي لا تقف حدود فلسفته عند أرض الوطن فحسب، بل تتعداها إلى الأقطار الأخرى، والذي لا يضن بعمله وعلمه على أي من بلاده وأمته ما دام قد طُلب منه ذلك. بل لقد كانت – ولا زالت – مشاركات الدكتور الخشت في الأحاديث الثقافية والندوات المتخصصة والقنوات الفضائية إضافة حقيقية؛ حيث تناول فيها الموضوعات الفلسفية المعاصرة، كما تناول الفلسفة والمجتمع في مصر، والحرية والعقل والدعوات إلى التجديد والمعاصرة، فضلاً عن أحاديثه التي تعبر عن موقف سياسي راسخ واتجاه ديمقراطي حقيقي.

أهمية الموضوع:

أ. تكمن أهمية هذا الموضوع في كونه يتناول شخصية فلسفية معاصرة أثرت الحركة الفكرية والفلسفية بإنتاج فلسفي متعدد الجوانب.

ب. بدراسة محاور الخطاب الفلسفي ومنطلقاته في الفلسفة العربية المعاصرة من خلال علم من أهم أعلامها، وهو المفكر محمد عثمان الخشت.

(1) المشترك بين الأديان والفلسفة، ط القاهرة، دار غريب، 2011م.
(2) الإسلام والعلم بين رينان والأفغاني، ط القاهرة، دار قباء، 1998م.

ج. التأكيد على ضرورة عدم التسليم بالأفكار الفلسفية السابقة، وإنما استعمال الشك المنهجي فيها، وهذا ما فعله مفكرنا الخشت في العديد من دراساته، وأهمها على الإطلاق كتاب أقنعة ديكارت العقلانية تتساقط.

د. الكشف عن المنهج الذي استخدمه الخشت في إنتاجه الفكري، والمقاصد التي ارتآها من ورائه.

هـ. الكشف عن مدى اسهامات الفكر العربي المعاصر والفلسفة العربية المعاصرة في إثراء حركة الفلسفة، وذلك من خلال نموذج المفكر محمد عثمان الخشت.

الدراسات السابقة:

ليس هناك دراسات عن الدكتور محمد عثمان الخشت سوى دراستين:

الأولى، كتاب عقلانية بلا ضفاف، الظاهرة الدينية والظاهرة السياسية في أعمال الخشت الفكرية، وهو كتاب جماعي، صدر تحت إشراف وتحرير الدكتور غيضان السيد علي، وتقديم ومراجعة الدكتور عصمت نصار.

الثانية، كتاب الأسس الفكرية والمنهجية في الفلسفة الإسلامية المعاصرة (نموذج محمد عثمان الخشت) تأليف محمود كيشانه.

أما عن دراسة تناولت الخطاب الفلسفي منطلقاته ومحاوره عند المفكر محمد عثمان الخشت فلا توجد، ومن ثم كان توجهي لدراسة هذا الموضوع.

إشكالية الدراسة:

وتقوم الدراسة على محاولة الإجابة عن الأسئلة الآتية:

ما المقصود بالخطاب الفلسفي في إيجاز؟

ما المنطلقات التي انطلق منها الخطاب الفلسفي عند الخشت؟

(ISSN : 2536 - 9555)

هل هذه المنطلقات تنسجم مع طبيعة المحاور الفكرية التي تناولها بالدراسة؟

ما محاور الخطاب الفلسفي عند الخشت؟

وهل هذه المحاور قدمت حلولاً لإشكاليات آنية تواجه الفكر والفلسفة خاصة؟

ومن ثم يدور البحث حول المحاور الآتية:

أولاً – المقصود بالخطاب الفلسفي.

ثانيًا – منطلقات الخطاب الفلسفي عند الخشت.

ثالثًا – محاور الخطاب الفلسفي عند الخشت.

رابعًا – خاتمة، وهي تلخص أهم ما انتهى إليه البحث من نتائج.

منهج الدراسة:

تستند الدراسة بالأساس على المنهج التحليلي، في محاولة لتحليل الإنتاج الفكري للمفكر محمد عثمان الخشت بهدف تحديد البنية الفكرية والمنهجية التي يرتكز عليها في هذا الإنتاج، فضلاً عن أن الدراسة لم تعدم في بعض أجزائها منهج المقارنة بين آراء الخشت وغيره، خاصة أولئك المفكرين الذين عرض لهم بالدراسة والبحث، كما أنها لم تعدم في بعض أجزائها المنهج النقدي لبعض الأفكار التي قال بها بعض المفكرين الذين تناولهم الخشت بالدراسة أيضًا.

أولاً - ماذا نقصد بالخطاب الفلسفي؟

إن الخطاب الفلسفي الحقيقي هو خطاب مفتوح على كل التيارات الفكرية، هذا الخطاب يعتمد بالأساس على النص الفلسفي، ذلك النص الذي يعد سبيلا لتجديد الخطاب الفلسفي، بيد أننا نعترف أن هذا الخطاب الفلسفي له خصوصياته التي ينطلق منها أو هكذا يقوم عليها، كما أن له محاوره التي يدور حولها، ولذا

يقول رولان بارت: «إن النص جمْعٌ، وهذا لا يعني فقط أن النص يحتوي على عدد من المعاني، ولكنه يعني أنه يُنجز جمع المعنى نفسه، إنه جمعٌ لا يُختزل... والنص ليس مشاركة وجودية للمعاني ولكنه ممر وانتقال. وإذا كان هو كذلك، فإنه لا يستطيع إذن أن يصدر عن تأويل واحد وإن كان ليبراليًّا، ولكنه يصدر عن انفجار وانتثار. وهذا ما يجعل أي علم يقوم على الاستنباط والاستدلال النصوصي وَهماً، ليس ثمة «قواعد» للنص»[3] وإذا ما نظرنا إلى مؤلفات المفكر محمد عثمان الخشت لوجدنا أنها تقوم على ذلك الخطاب الفلسفي، بل إنها تشي بخطاب فلسفي شديد الخصوصية، فضلاً عما يتمتع به من فكر متشعب متعدد الاتجاه، على نحو يأخذنا إلى خطاب ذي أفرع متعددة خدمة للفكر عامة والفلسفة خاصة.

ثانياً - منطلقات الخطاب الفلسفي عند الخشت:

إن الخشت كان يدرك جيدًا أن العلم يشكّل دوما المنعطفات الكبرى لتحول البشرية من مرحلة إلى مرحلة أعلى، مؤمنًا بأنه الذي ميز دولاً عن دول في عالمنا المعاصر، ولذا فإن جهوده كلها – ولا أبالغ في ذلك – كانت موجهة نحو تنمية البحث العلمي؛ لأنه الطريق الوحيد إذا أردنا لأمتنا مكانة بين الأمم المتقدمة. ومؤمنًا كذلك بأنه لا تزال أمامنا تحديات كبيرة، تحديات التطوير، وتحديات إعادة الإصلاح، وتحديات التأهيل النظري الواضح والأسس المنهجية الرصينة التي بدونها يهبط المستوى العام للبحث العلمي[4]. ولذا لم يجد الخشت بدًّا من الارتقاء بمستوى البحث، وذلك من خلال محاولة رفع مهارات البحث عند الباحثين، وتأكيد تواصل الأبحاث مع تراكم المنظومة المعرفية العالمية من جهة، وتمثل الأسس المنطقية والقواعد الموضوعية التي يجب أن يستند إليها الباحث في

([3]) رولان بارت، هسهسة اللغة، ترجمة : منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، حلب، ط1، 1999، ص :90.

([4]) الخشت، مناهج البحث، بيروت، طبعة الأمير، 2010م، المقدمة ص 1.

(ISSN : 2536 - 9555)

دراسته للظاهرة من جهة أخرى، والاهتمام المستمر بقضايا المنهج التي تشكل إطارًا مرجعيًا بالاعتماد على خبرات نقدية معبرة عن الواقع. "ولا يمكن تحقيق ذلك كاملاً من دون مساهمة عملية ومباشرة في مجال مناهج وأدوات البحث العلمي وفي مجال التنظير، فضلا عن تدقيق قواعد الكتابة العلمية. مما يؤدي في النهاية إلى خلق جيل من الباحثين يتمتع بمنهجية صارمة، ورؤية علمية متميزة"[5].

وإيمانا بأهمية تأصيل الأسس المنهجية قدّم الخشت كتاب مناهج البحث الذي سعى من خلاله إلى تقديم منهجية رصينة وخطوات عملية وعلمية تمثل استراتيجية منظمة يستطيع الباحث من خلالها اكتشاف الحقائق، " فالوصول إلى الحقيقة غير ممكن بدون استخدام قواعد وطرق البحث العلمي السليم وفقا للمنهجية العلمية، وبدون الاعتماد على الركائز الأساسية التي تساعد الباحثين على إنجاز الأبحاث وفق إجراءات تحليلية تكشف المعرفة اليقينية المفسرة للظاهرة محل البحث، والتعبير عنها بأسلوب رصين يلتزم بأدبيات الصياغة والتعبير"[6].

لقد كان الدكتور الخشت يسير وفق منطلقات منهجية محددة التي تعتبر نموذجًا للمنهجية ويمكن أن نحصر هذه المنطلقات في الآتي:

أولاً- العقل:

يظهر في مؤلفات الدكتور الخشت ومنهجيته اهتمام كبير بالعقل والتفكير العقلي باعتباره عاملاً رئيسًا في فهم وتفسير القضايا والإشكاليات المختلفة، وليست كتبه في نقد الفلسفة الغربية وكتبه في مجال الفلسفة والفقه إلا دليلاً حياً على ذلك.

([5]) الخشت، مناهج البحث، المقدمة، ص 1.

([6]) الخشت، مناهج البحث، المقدمة، ص 1.

ومن لوازم العقل العقلانية، وهي عند الخشت صفة تنطبق على استخدام العقل، العقل الذي يميز الله تعالى به الإنسان عن الحيوان. ويأسف الخشت من أن كثيرا من الناس لا يستخدمون عقولهم، بل وكثير من الناس الذين يستخدمون عقولهم يستخدمونها بشكل خاطئ، لأنهم لا يعرفون طريقة التفكير الصحيحة؛ أو لأنهم يغلّبون أهواءهم ورغباتهم ومصالحهم السريعة على أحكام العقل[7].

ومن ثم فقدت أثمرت عقلية الخشت كتابًا – العقلانية والتعصب – هدف من خلاله شرح وتحليل مفهوم العقلانية، وبيان مبادئها وأصولها، وأهم أعلامها، مع بيان جوانب الاتفاق والاختلاف بين أنواع العقلانية، والتمييز أيضا بين العقلانيين واللاعقلانيين المتعصبين، بل والتمييز بين العقلانية المعتدلة والعقلانية المتطرفة.

ويقف هذا الكتاب عند مفهوم التعصب سواء كان تعصبا أو تطرفا دينيا أم غير ديني. "وفي ظني يكمن المنشأ الفلسفي للتعصب والتطرف في طبيعة منهج التفكير، فالعقل المتعصب المتطرف عقل مغلق على نفسه، ومن ثم فهو مظلم، مثل الحجرة المغلقة التي لا نوافذ لها.. إنها لا ترى النور، ولا يمكن لمن بداخلها أن يرى شيئا سواء في الداخل أو الخارج.. إنه لا يستطيع أن يتجاوز ذاته. ومن هنا فإن صاحب العقل المغلق من المستحيل أن يرى أي شيء خارج عقله، لا يستطيع أن يتجاوز أفكاره المظلمة ولا يمكنه أن يرى غير أفكاره هو، ويعتبرها يقينية قطعية لا تقبل المناقشة، ومؤكدة بشكل نهائي! ويرجع هذا بدوره إلى حالة الانغلاق العقلي التي يعيشها، ومن ثم الطابع التعصبي التطرفي الذي يميز منهجية التفكير التي يستخدمها. فأي متطرف في الدين أو الفكر أو السياسة هو متعصب أو دوجماطيقي بلغة الفلسفة"[8].

([7]) الخشت، العقلانية والتعصب، القاهرة، دار نهضة مصر، 2000م، ص المقدمة.

([8]) الخشت، العقلانية والتعصب، ص المقدمة.

(ISSN : 2536 - 9555)

ويظل الخشت مؤمناً بقيمة العقل، وقدرته على مواجهة إشكاليات الواقع رغم صعوبتها، فقد حمل الخشت مشروعه الفكري على أسس عقلية، أراد نهضة فكرية علمية على أسس عقلية، أراد اتجاهًا فقهيًا تنويريًا على أسس عقلية. والحق إن بروز العنصر العقلي لديه، والموقف العقلاني في كل ما يصدر عن فكره أمر واضح لا تشوبه شائبة، ويبرز جليًا في كتاباته.

فالعقل عند الدكتور الخشت الأساس ركيزة أساسية في تناول القضايا وتقديم الحلول لها، فهو في علم مقارنة الأديان يتخذه معيناً في رفض آراء الأديان المخالفة عن التوحيد وإثبات وجود الله، واتخذه معيناً في إثبات الوحدانية لله سبحانه؛ لأنه وجد في إثبات غيرها تشبيها لله بالإنسان. وما أظن في من ينقد مذهب كانط العقلي إلا واقفًا على منهج عقلي راسخ ومستخدماً إياه؟! وما أظن إيمانه بقيمة العقل عند الأفغاني وإعلائه على التقليد إلا إيماناً بهذا المنهج واستخداماً إياه؟! وما أظن تفضيله للمنهج أو للمنطق الحديث على سابقه إلا إيذاناً بوجود منهج عقلي يدعوه إلى هذا التفضيل من خلال ما بدا له من مميزاته وأهميته ودوره في الصعود بالإنسانية إلى الرقي والتقدم؟! إن الدكتور الخشت قد أعلن عن منهجه العقلي بوضوح أيضًا من خلاله إبراز الجانب المشرق في الفلسفة العقلية البناءة.

إن الخشت يمتلك عقلاً حرًا كان ولا يزال ينتقد العقل المغلق، فالعقل المغلق عنده مثل الحجرة المظلمة التي لا نوافذ لها، إنها لا ترى النور، ولا يمكن لمن بداخلها أن يرى شيئا سواء في الداخل أو الخارج، ولا يتنفس إلا هواء قديما، أما أكسجين الحياة فلا يمكن أن يصل إليه! ومن ثم كان ينظر إلى صاحب العقل المغلق على أنه أشبه بالطفل في رحم الأم، كل عالمه هو هذا الرحم، وهو غير متصل مع العالم الخارجي، ولا يمكن لأحد أن يحاوره، ولا يمكن أن يخرج من هذا العالم المغلق بإرادته، إنه يظن أن الخروج من هذا العالم مهلكة، وهو يصرخ

بأعلى صوته ويتلوى ويرفس عند إخراجه قسرا! ولذا لا يستطيع صاحب العقل المغلق عنده أن يتجاوز ذاته أو عالمه الخاص. ومن المستحيل أن يرى أي شيء خارج عقله، ولا يستطيع أن يتجاوز أفكاره المظلمة ولا يمكنه أن يرى غير أفكاره هو، ويعتبرها يقينية قطعية لا تقبل المناقشة، بل يصل به الحد إلى اعتبارها ذات طابع إلهي، وأن الله تعالى معه! بل إنه ممثل الله على الأرض. والله ليس رب العالمين، بل ربه هو فقط. وعندما يدخل في صراع مع أحد، فالبديل الوحيد عنده هو إعلان الحرب المقدسة؛ فهو وحده على طريق الحق والخير، وغيره كافر، أو عَلماني، أو ضال، أو شرير أو فاسد[9].

ومن غير الخفي أن الخشت لم يكن ينظر إلى العقل المغلق على أنه فقط طابع يميز بعض التيارات الدينية الأصولية، بل هو طابع بعض الحركات الشيوعية والعلمانية أيضا التي تعتقد أنها تملك الحقيقة المطلقة! وكذلك يظهر العقل المغلق كسمة أيضا وبوضوح في بعض المواقف الغربية التي تتخذ موقفا معاديا من الحضارات الأخرى وتزعم أن نموذجها الحضاري هو النموذج الأمثل بشكل مطلق! ولذا فهي تعمل جاهدة على تعميم هذا النموذج من خلال العولمة وترسيخ مفهوم صراع الحضارات، التي تنظر فيه إلى حضارتها كممثلة للمدنية أما الحضارات الأخرى فهي بدائية![10].

وبناء على هذا الفكر المتحرر من قيود الأيديولوجية لم ينظر الخشت إلى العالم على أنه أبيض وأسود، ملائكة وشياطين، سلام وحرب، فلم يكن بحال

([9]) انظر الخشت، نحو تأسيس عصر ديني جديد، القاهرة، نيوبوك، 2017م، ص 61.

([10]) انظر الخشت، السابق، ص 62 وما بعدها. وانظر الخشت أيضًا، العقل المغلق، بوابة الوطن، 2013/8/3م

http://www.elwatannews.com/news/details/238321

(ISSN : 2536 - 9555)

منفصلاً عن الواقع أو أسير أوهام وأفكار يعتبرها مقدسة، وهذا كله يعبر عن حالة الانفتاح العقلي التي كان يعيشها الخشت.

لقد كان العقل عند الخشت معينًا له في اتجاهاته السياسية؛ فقد كان يرى أن المجتمع في الإسلام قائم على التعددية وحماية الجماعات الضعيفة والأقليات، ومحاربة التمييز ضد حقها في الحرية. ومن ثم كان يطالب باستعادة هذه المفاهيم المدنية وتقنينها في الدستور والقانون وتوسيع نطاق دورها وتدريب الناس عليها حتى يتحولوا إلى كائنات حرة مسئولة دون قهر أو إقصاء وأيضا دون فوضى أو عشوائية.. "إنها معادلة صعبة في مجتمع مراهق سياسيا، لكن لابد أن نصنعها إذا أردنا دولة حرة يحكمها دستور عادل يحفظ الأمن والنظام العام والدولة الوطنية لكنه لا يفرط في الحرية. فهل يمكن أن نفعلها؟ والذي أريد أن استنبطه من هذا كله لا يخص المتشددين من الإسلامويين فقط الذين يحتكرون الحقيقة، بل يخص المتطرفين من العلمانيين الذين لا يقلون في ادعاء احتكار الحقيقة عن الإسلامويين، فعلى الرغم من اختلاف المقاصد بين الاثنين إلا أن "ماكينة التفكير" واحدة، وتنتج طحينا من نفس النوع، الفرق فقط في اللون لا في الطعم!إنها مأساة العقل السياسي المصري المحكوم ببنية واحدة رغم اختلاف الثوب الخارجي!"[11].

ثانياً- المنهجية:

كان الخشت منهجياً إلى أقصى درجات المنهجية، فلا تكلف ولا زيادة، وإنما الوصول إلى الحلول أو الرأي المناسب من أسهل الطرق وأيسرها، إذ لم يكن في منهجه التنطع أو التعالي أو تزيين كلامه أو مؤلفاته بالصور البلاغية، والأساليب

(11) انظر الخشت، السابق، ص 168، وانظر الخشت، الإسلام الحر ودستور بلا أقنعة، بوابة الوطن، 2013/11/16م.
http://www.elwatannews.com/news/details/356744

البراقة، أو المحسنات البديعية. ويمكن التسليم للدكتور الخشت بالمنهجية من خلال عدة أمور، على الرغم من كثرة الأمور الدالة على ذلك[12]:

أ. استنباط النتائج من المقدمات دون زيادة.

ب. ترابط الأفكار في المؤلف الواحد والمؤلفات الأخرى.

ج. جودة تقسيم الكتب التي يؤلفها ودقة عرضها.

د. التوازن الكمي بين الفصول.

هـ. البعد عن الحشو والاستطراد.

الأول: استنباط النتائج من المقدمات دون زيادة:

يظهر طرحه للمقدمات لاستنباط النتائج أمراً مقرراً في كل كتاباته ومؤلفاته، ففي مؤلفاته حول الفلسفة الحديثة يضع النصوص الكانطية أو الهيجلية المأخوذة من كتب كل منهما الخاصة كمقدمات يستنبط منها النتائج التي تنحصر في أن كلاً منهما حريص على فكرة الدين كدين دون تحديد هذا الدين؛ حيث إن فكرة الدين شغلت كل المفكرين على حد سواء، ومن خلال هذه المقدمات دلل على خطأ ما سبق أن قرره بعض الباحثين.

كذلك تظهر تلك الجزئية المنهجية في مقارنات الدكتور الخشت بين كانط وهيجل في كتاب: المعقول واللامعقول في الأديان – من العقلانية النقدية إلى العقلانية المنحازة، ومقارنته بين الأفغاني ورينان في كتاب: الإسلام والعلم بين الأفغاني ورينان، فالنصوص والمقدمات والنتائج، ولا زيادة على ذلك، فالذي يحكمه ويوجه سيره هو النصوص التي لا تقبل الشك بحيث تكون هذه النصوص هي الفيصل والحكم بينه وبين خصومه.

([12]) وهو في ذلك يتشابه مع الدكتور محمود قاسم إلى حد كبير.

(ISSN : 2536 - 9555)

الثاني: **ترابط الأفكار في المؤلف الواحد والمؤلفات الأخرى**:

فالدكتور الخشت كان يحرص على ألا يقع في تناقض مع ذاته في معالجته لمسائل الفكر الفلسفي، وإنما كان يحرص على التوافق مع النفس والتوافق مع المنهج الذي يسير عليه، وكأنه يعنى –كما قلت سابقاً– بمشروع فكري يبدو التناسق واضحاً بين جميع أجزائه، ومما يدلل على ذلك أن رؤيته في التنوير والتقدم تتواءم مع عقليته الفكرية والمنهجية، وتتواءم أيضاً مع منطقيته، ومقارناته التأصيلية للأفكار.

الثالث: **جودة تقسيم الكتب التي يؤلفها ودقة عرضها**:

يهتم الدكتور قاسم بتقسيم مؤلفاته حسب الموضوعات التي يتناولها بالدراسة، وهذه سمة رئيسة في كل هذه المؤلفات على كثرتها.

الرابع: **التوازن الكمي بين الفصول**:

يظهر في عدد صفحات كل فصل في كل كتاب من كتبه، والنسب المتساوية بينها، فلا نجد مثلاً فصلاً ما ثلاثين صفحة وآخر مائة صفحة، وإنما نجد بجوار الفصل المكون من ثلاثين صفحة، فصول الكتاب تتراوح بين هذا العدد بالزيادة أو النقصان قليلاً.

الخامس: **البعد عن الحشو الاستطراد**:

يظهر في أن الخشت لا يزايد في الكلام، ولا يدخل في الموضوع ما ليس منه، وإنما يقتصر على النصوص التي تؤيد الفكرة ويعالجها بما شاء من الطرق المنهجية التي تكفل له استقراء النص استقراءً منطقيًا.

ثالثاً: المقارنة كسبيل من سبل تأصيل الأفكار:

من سمات منهج الدكتور الخشت الرئيسية المقارنة، وهي المقارنة التي تهدف إلى الوصول إلى الحقيقة الفلسفية المبنية على شك منهجي في كل الأفكار التي وفدت إلينا من الغرب، وتلقيناها بتأييد شديد دون فحص أو نقد أو تمحيص، وهذه هي السمة الغالبة في دراساته عن الفلسفة الحديثة والمعاصرة أو فلسفة مقارنة الأديان خاصة وفي كل دراساته بصفة عامة.

وتشمل مقارنات الدكتور الخشت الكتابات الآتية: "الإسلام والعلم بين رينان والأفغاني"، و"المعقول واللامعقول في الديان – من العقلانية النقدية إلى العقلانية المنحازة"، و"تطور الأديان" و"مقارنة الأديان"، و"الحد الأدنى المشترك بين الأديان والفلسفة"، بل إننا نجد المقارنة متوغلة في كل كتابات الدكتور الخشت التي ليس هدفها الأول الموازنة بين فكرين أو شخصين؛ حيث نجده يميل إلى المقارنة خاصة إذا كان الأمر بصدد مناقشة رأي من الآراء أو الدفاع عن رأي يدين به، ويظهر هذا الأمر بوضوح مثلاً عندما يناقش أياً من والزر أو كونج أو غيرهما، وعندما يناقش أصول المجتمع المدني في كتاب "المجتمع المدني" وكتاب "المجتمع المدني والدولة".

سمات المقارنات التأصيلية:

إذا نحن تأملنا موقف الدكتور الخشت في علاقة التأثير والتأثر بين الفكر الإسلامي والفكر الأوروبي الغربي فلنا أن نزعم أنه كان مقارناً ماهراً، وفلسفياً حاذقاً، فإن أصدق شاهد على هذا – كما سيتبين – أنه كشف عن اتجاه تأصيلي صرف في كيفية إثبات علاقة التأثير والتأثر بين فكرين أو منهجين أو شخصين، فقد حدد منهجاً موضوعياً في إثبات ذلك، وهو المنهج الذي من خلاله كشف عن الكثير من الحقائق والوقائع، لقد وضع أصولاً جديدة في طريقة المقارنة التأصيلية،

(ISSN : 2536 - 9555)

واستوفي جميع نواحي المسألة في دقة وبراعة فائقة تدل بالأخرى على الإلمام بأبعاد المسألتين اللتين تقعان تحت حيز هذه المقارنة، فوقف على ما سوف نجده من آراء وأفكار ونظريات تكشف عن مدى التأثير والتأثر في قطاع عريض من الفلسفة الغربية، على نحو يقضي كلية – في رأيي – على الفرية القائلة بأن المسلمين ليسوا إلا مجرد شرّاح لفلسفة أرسطو.

إنه أرسى مبدأ جديداً وقاعدة مبتكرة في كيفية إجراء المقارنات بين الأفكار أو الأشخاص على نحو قل أن يداينه مفكر آخر في ذلك، بحيث يمكن القول إنه قضى على الطابع الأيديولوجي أو المذهبي أو العرقي الذي قد يكتنف بعض الباحثين في مقارنتهم، كما قضى على ما يمكن أن نسميه الطابع السطحي في المقارنات. فكانت دراسته أشبه بالدراسة الميدانية التي تتبع جوانب وتفاصيل الفكرة التي يذهب إليها.

وأول ما يفاجئنا في هذا المبدأ أنه مبدأ متحرر من الطريقة التقليدية، وأقصد بها الطريقة التي تقوم على الثقة بالأفكار لمجرد أن المتقدمين أقروها، فهي طريقة يمكن أن نسميها طريقة سلبية ليس فيه شيء من الابتكار أو الجدة، وإنما هي مثال على الدعة والكسل. وقد يدلك على هذا المسلك أنه لم يكتف في إثبات التأثير والتأثر بإظهار مواطن التشابه والاختلاف فقط، وإنما كان يجاهد لقراءة النصوص قراءة تأويلية لا تكتفي بمجرد الطرح، وإنما تحاول أن تسبر أغوار النصوص والآراء.

ويمكن القول دون تردد أن مقارنات الدكتور الخشت أو تأصيلاته كانت تمتاز بعدة مميزات، جعلت منها تأصيلات تفوق غيرها في جوانبها الفلسفية والمنهجية مما عرض له المفكرون في الدراسات المعاصرة، ويمكن حصر هذه المميزات في الآتي:

تعتبر تلك المقارنات منصبة على موضوعات بعينها، فالرجل كان يضع موضوعاً محدداً أو فكرة محدودة لتناولها بين شخصين، ولعل المتأمل لدراسته عن العقل وما بعد الطبيعة – تأويل جديد لفلسفتي كانط وهيوم ليجدها خير دليل على تركيز الدكتور الخشت في حيز ملائم منسق متسق، فدرسها من جانبين: جانب النقد الداخلي المتعلق بدارسة النصوص وتحديد المشكلات وطريقة الحل والمنهجية في المعالجة، وجانب المقارنة النقدية التحليلية.

تميل مقارنات الدكتور الخشت إلى التفصيل والتركيز في آن واحد، فرغم أنها مركزة ومحددة إلا أنها تفصيلية في داخل هذا الإطار المحدد، وتعد مسألة العلم والدين بين رينان والأفغاني من أكثر المسائل تدليلاً على هذه الميزة. فالدكتور الخشت حدد الدراسة بين هذين المفكرين، وعالجها في إطار من التفصيل، فعالج الأمور الجزئية– عندهما– التي تندرج تحت هذه الجوانب الكبرى في دراسته.

هذه المقارنة مقارنة تهدف إلى إثبات فكرة جديدة تتميز بالأصالة والتأصيل لأفكاره في آن واحد، حيث تعتبر محاولات التأصيل عند الدكتور الخشت تقوم– في المقام الأول– على المقارنة، وهي أقرب الطرق للكشف عن مدى العلاقة الموجودة بين مفكرين في موضوع ما من موضوعات الفكر. ولنا أن نقول إنها أقرب الوسائل التي تتيح معرفة مدى إسهام فكر ما في نشأة أو تطور فكر آخر، كما أنها تضع صورة واقعية أمام القارئين أو المتخصصين لإدراك عملية التأثير. ونحن نعلم أن الدكتور الخشت، وهو في سبيل تأصيل الفكر الإسلامي عن طريق المقارنة قد صنع لنا مقارنات أقل ما توصف به أنها رائعة وهي:

- المعقول واللامعقول.
- مقارنة الأديان.
- العقائد الكبرى.
- العقل وما بعد الطبيعة.

(ISSN : 2536 - 9555)

- العلم والدين بين الأفغاني ورينان.

وكلها مقارنات تقوم على مقابلة النصوص بعضها ببعض، بحيث لا تدع أي مجال للشك في طبيعة الصلة الوثيقة التي تربط بين طرفي المقارنة.

تقوم المقارنة هنا على الجانب التحليلي، فهي مقارنة تحليلية، إذ لم يكن الدكتور الخشت يقتصر على الدراسة المقارنة، وإنما أردفها بالدراسة التحليلية لهذه النصوص للكشف عما بها من أفكار وآراء، فهو يقوم بتحليل النصوص تحليلاً دقيقاً، للكشف عن أوجه التلاقي أو التشابه أو المحاكاة، وقد كان لهذه الطريقة عند الدكتور الخشت دورها المحمود؛ لأنه كثيراً ما يتفق أن يتحدث الطرفان عن فكرة واحدة مع قليل أو كثير من التحوير، بحيث قد ينطبع في الذهن للوهلة الأولى عدم وجود تقارب ما بينهما، وهنا تأتي أهمية تحليل النص كلمة كلمة وجملة جملة، حتى يتم الكشف عن وجود هذا التقارب، وقد عبر منهج الدكتور الخشت عن هذه الميزة خير تعبير في مقارنته كلها بدون استثناء.

كما تقوم محاولات المقارنة إلى جانب هذا على الدراسة الوصفية، بمعني أنها غالباً ما تلجأ إلى وصف نشأة الفكرة موضوع البحث وتطورها عند الطرفين، وعلاقتها بالبيئة التي ظهرت فيه، وهذا الأمر يتضح تمام الوضوح في المقارنة الرائعة حول كانط وهيوم، أو كانط وهيجل.

كذلك تقوم هذه المحاولات على الدراسة الموضوعية التي تحاول تهميش دور التأريخ فيها، استناداً إلى أن كثرة التفاصيل التاريخية، وما يحيط بها من قصص وأساطير تخرج الباحث عن الموضوع الأساسي– وإن كان هذا لا يعني إهمال المنهج التاريخي– في حين كان هدف الدكتور الخشت الكشف عن الاتجاهات الأساسية والمميزات الذاتية للفكر الفلسفي، ومن ثم وجدنا مقارنات الدكتور الخشت تحاول بصدق الكشف عن هذا الهدف الأخير. ومن ثم وجدنا الدكتور الخشت

يتجه إلى موضوعات محددة ومركزة تكون أساساً ينطلق منه إلى إرساء نوع جديد من الدراسات الموجهة للعناية بالأفكار الجديدة دون الارتكاز على الناحية التاريخية. ولعل تلك السمة تظهر بوضوح في بحوث الدكتور الخشت حول دراساته القائمة على المقارنة، وغيرها من الدراسات. ويمكن القول إن هذا المنهج قد اهتدى الدكتور الخشت من خلاله إلى أفكار جديدة تدعو إلى وجهات نظر مخالفة لتلك التي ارتضاها باحثون سابقون. لقد كان الدكتور الخشت يبدأ دراساته التأصيلية بعملية تحليلية دقيقة لأفكار طرفي المقارنة أو التأصيل، ثم يتجه إلى النظرة التركيبية التي تقوم على اختيار الآراء المتشابهة بينهما، فهو يطبق أسس المنهج العلمي أو المنطق الحديث في محاولته للوصول إلى وجه الحق.

تنوعت هذه المحاولات بين إظهار نقاط الالتقاء مع البحث الفعلي عن مظاهر التأثير والتأثر، وبين إظهار نقاط الالتقاء دون البحث الفعلى عن إثبات ظاهرة التأثير والتأثر، وتبدو مقارناته من النوع الأول متمثلة في: كتاب العلم والدين بين الأفغاني وريتان، وهي الدراسات التي حاول الدكتور الخشت من خلالها أن يدلل على أسبقية العقلية العربية للفكر الغربي في مسائل مهمة وحساسة لم تأخذ شكلها النهائي إلا في العصر الحاضر، كل ذلك دون أن يكون هدفه إثبات جهل الغرب بأفكار جوهرية في الإسلام، أو معرفتهم بها، مع أن هذا قد يكون صحيحاً. أما مقارنات النوع الثاني فهي متمثلة في: المعقول واللامعقول، وغيره من الكتب المتعددة ورغم أن الدكتور الخشت لم يصرح في هذه الدراسة الأخيرة بأنه لم يقصد إثبات التأثير والتأثر، إلا أننا نري أنه سلك مسلكاً غير هذا، فذهب إلى إثبات نوع من التأثير والتأثر وذلك لعدة أسباب أهمها: تلك الدراسة التفصيلية لكل جزء من أجزاء الأفكار المتشابهة بينهما على نحو يؤكد أن الأمر ليس بعيداً عن إثبات ظاهرة التأثير والتأثر، ومع هذا يبقى التأكيد على أن مظاهر التأثير والتأثر كانت

(ISSN : 2536 - 9555)

المنطلق الذي انطلق منه إلى التأويلات الجديدة وفهمه المبتكر لكثير من القضايا والعلاقات الشائكة بين الفلاسفة.

هذه المحاولات برهانية تعتمد على عرض النصوص التي تؤكد التشابه بين الآراء عند جانبي المقارنة، فالمعول الأساسي في أي دراسة برهانية، هو الاستناد إلى النصوص التي تؤكد وجود الفكرة عند هذا وذاك.

وثمة فائدة أخرى في المقارنة ومحاولات التأصيل بين المذاهب الفلسفية الأوروبية؛ إذ لم تكن غاية الأستاذ الخشت من هذه المقارنة البرهنة على أن عناصر الفكر الإسلامي أو اتجاهاته الرئيسية قد نقلت إلى مذاهب فلاسفة الغرب، إذ لم تكن تستهويه تلك الدراسات، وإنما كان هدفه ينحصر في أن يظهر الآراء الفلسفية المبتكرة التي أحيطت بصمت بالغ، أو التي ينظر إليها بعض الدارسين على أنها لا تستأهل الوقوف عندها للتأمل أو لمجرد الدراسة.

عدم التعويل على الجانب التاريخي في هذه المحاولات سمة بارزة، فلم يكن يشغل الدكتور الخشت باله بالبحث عن المسالك التي يمكن أن يكون الفكر قد تبعها حتى انتهى بتفاصيله المذهلة إلى الفلسفة الغربية عبر القرون المتباعدة، رغم تباين الوسط البيئي والفكري الذي عاش فيه كل من طرفي المقارنة، مع هذا يبقى أن الخشت قد تطرق إلى بحث الجوانب التاريخية الكبرى التي مر بها الفكر أو المفكر الذي يتناوله بالدراسة كما فعل مع كانط وهيوم وكانط وهيجل. وإذا كان الخشت يلجأ إلى إهمال الجانب التاريخي، فإن السبب في ذلك يعود إلى الآتي:

أ. نظرة الدكتور الخشت نفسه إلى هذا الجانب على أنه دراسة من الخارج وإن كان لها أهميتها البالغة في التدليل على الجانب النقدي الداخلي.

ب. كان وقته لا يتسع لاستخدام هذا الجانب في الكشف عن حقيقة التواصل بين طرفي المقارنة.

ج. كان يرى أن منهج النقد الداخلي الذي يقوم في الأساس على دراسة النصوص ذاتها هو المنهج الأمثل والمتكامل في إثبات الهدف من المقارنة.

د. إفساح المجال للباحثين لمعالجة هذه المسائل تاريخياً خاصة أولئك النفر الذين يستهويهم هذا النوع من الدراسات. وقد فعل ذلك عندما طرح أكثر من قضية تصلح للدراسة والبحث، منها: فلسفة الدين عند هيجل، وفلسفة الدين عند ليبنتز.

كما أن من الأمور المهمة في هذه المحاولات التأصيلية أن الأستاذ الخشت لم يشأ أن يضخم هذه المحاولات بذكر آراء الآخرين الذين كتبوا عن أحد طرفي المقارنة أو كليهما، وإنما كان يذكر منها الآراء التي تخدم موضوعه وفكرته التي حددها لنفسه بدءاً؛ إذ إن اعتماده الكلي كان على كتابات ومؤلفات هذين الطرفين، ومع ذلك فلا أظن أن الأستاذ الخشت يرى في نفسه أنه أبرز جميع نقاط الالتقاء أو الاختلاف بينهما، وإن كان بالأحرى يراها نقطة على طريق إثبات مرحلة التأثير والتأثر أو حتى التشابه والتوافق.

كذلك من الأمور المهمة الإشارة أثناء المقارنة إلى أوجه الاختلاف بين طرفي المقارنة إن وجد ما يدل على هذا الاختلاف؛ إذ إنه كان يدرك أن السعي الحثيث إلى بيان تأثر أحد الطرفين بالطرف الآخر في كل الأمور أمر في غير صالح البحث أو الهدف الذي يرمي إليه؛ ولأنه كان يدرك أن ذلك أمر في غاية الصعوبة، حتى أن طبيعة الإنسان الشخصية تهفو إلى التفرد عن الغير. وإثبات الذات والخصوصية، فقد أكد على بعض الاختلافات الجوهرية عند كانط وهيجل في نظرتهما لفلسفة الدين، في سياق مقارنته بين الأديان على التفرد لكل ديانه مميزًا بينهما، وهكذا في بقية المقارنات. وهذا يدل على مقدار ما كان يكتنف دراسات الدكتور الخشت المقارنة أو التأصيلية من أمانة وحيدة تبلغ مدى بعيداً.

(ISSN : 2536 - 9555)

كانت مقارنات الخشت تحاول كشف العلاقات بين طرفي المقارنة في كل مرحلة من مراحل التطور الذي انتاب هذين الطرفين، فلم يكن يقنع بالوقوف عند علاقتي التشابه والاختلاف، في حين لم يكن يقنع بالتوقف عند هاتين العلاقتين، وإنما كان يعمل على توسيع مجال الرؤية لطبيعة العلاقة بين طرفي المقارنة، من خلال النظر إليها عن طريق معايير التطوير والتجاوز وتوظيف الأفكار وتلقيحها بأفكار أخرى أخذت من سياق فلسفي آخر، الأمر الذي قد يؤدي إلى تغيير ملموس في طبيعة التصورات السائدة عن تلك العلاقة بين الطرفين. ويظهر ذلك جليًا في مقارنة الخشت بين كانط وهيجل وسر تحولات هيجل في علاقته بكانط في مراحل تطوره، ولا سيما أن الدكتور الخشت أثار تساؤلات عن مدى نجاح هيجل أو فشله في تجاوز كانط، فقد كان يرى في العلاقة بينما علاقة استثنائية لا تتكرر كثيرًا في تاريخ الفلسفة، إلا في لحظات التحول الفلسفي الكبير، مثل علاقة أرسطو بأفلاطون، وابن سينا بالفارابي، وواصل بن عطاء بالحسن البصري وكانط بهيوم[13].

كثير من مقارنات الخشت في مقارنة الأديان خاصةً كتابيه: تطور الأديان قصة البحث عن الإله، العقائد الكبرى بين حيرة الفلاسفة ويقين الأنبياء، تحاول تقديم مقارنة شاملة بين الأديان والفلسفات والعلوم الاجتماعية من خلال ضمها في حقل واحد، بحيث تتيح الفرصة لرؤية أوسع للنظر إلى العقائد الإنسانية من أكثر من زاوية، وبحيث لا تغفل المقارنة منجزات علم الاجتماع الديني، وعلم النفس الديني، والأنثروبولوجيا الدينية، وهو بذلك يتخذ منهجًا مخالفًا للسابقين في دراسة الأديان؛ حيث كان التركيز ينصب فقط إما على مقارنة الأديان وحدها، أو مقارنة

(13) انظر المعقول واللامعقول في الأديان بين العقلانية النقدية والعقلانية المنحازة، القاهرة، ط دار نهضة مصر، 2006م، ص 6.

الفلسفات وحدها، أو دراسة الدين فلسفيًا كما في فلسفة الدين، أو دراسته من خلال علم النفس الاجتماعي، أو علم النفس الديني.

وفي مجال مقارنة الأديان خاصة في الكتابين السابقين اتخذت المقارنة منحنى جديدًا؛ حيث قامت بتوسيع أفق علم مقارنة الأديان ليتحول من مجرد علم وصفي في العصور الحديثة إلى علم نقدي فلسفي، يجمع بين الوصف العلمي والتحليل الفلسفي والنقد العقلي الملتزم بمعايير المنطق، فضلاً عن مقارنة ما تقوله الأديان عن العالم، وما تقدمه منجزات العلوم الطبيعية من قوانين وثبوتها بطرق وصفية، بحيث يخرج منها ما لا يزال في طور النظرية أو التجريب.

ولئن كان الخشت قد حاول جاهدًا توظيف المناهج العلمية والفلسفية الحديثة في مقارناته عن الأديان، فإنه يمكن القول إنه استفاد بشكل واضح – بلا شك – من جهود مناهج النقد التاريخي، ومناهج نقد النص، والنقد الشكلي، بل ومناهج الأصوليين، كما استفاد من جهود المدرسة التحليلية، واللاهوتيين الأحرار، والعقلانيين، ونتائج علم الاجتماع الديني، وعلم النفس الديني[14]، بحيث يمكن القول إن المنهج المقارن عند الخشت كان منهجًا مركبًا لا يقف عند حدود المقارنة، وإنما يتعداها إلى الوصف والتحليل والنقد، كل ذلك حسب السياق الذي يبحث فيه والموضوع الذي يتناوله.

رابعاً: التأسيس الموضوعي:

إن منهج الدكتور الخشت يتجه مباشرة إلى عرض نماذج واضحة محددة للفكر الفلسفي تكشف لنا عن اتجاهاته الأصيلة وخصائصه الذاتية، فهو إذن يتجه

(14) انظر د. غيضان السيد علي، قراءة نقدية في كتاب تطور الأديان – قصة البحث عن الإله، كتاب عقلانية بلا ضفاف، ص 269.

(ISSN : 2536 - 9555)

رأساً إلى تلك الموضوعات المحددة من التفكير الفلسفي ليتخذها مادة لنوع من الدراسات المركزة التي تعنى بالأفكار أكثر مما تعنى بالتفاصيل التاريخية.

ولقد أثار الدكتور الخشت من خلال هذا المنهج الموضوعي مشكلات كثيرة ومحددة ودرسها دراسة مقارنة، مع القدرة على الخروج منها بحلول مقبولة، معتمداً في ذلك على عمليتي: التحليل والتركيب، كيفما الحال في دراسة الوثائق التاريخية، فدرس الموضوعات دراسة تحليلية، مردفاً إياها بنظرة تركيبية، تقوم على أساس من اختيار الآراء الرئيسية، وما يدور حولهما من تفاصيل فرعية. وللحق فهو منهج أشد صعوبة من المنهج التاريخي، حيث يضع المرء وجهاً لوجه مع النظريات الفلسفية مجردة من الحوادث التاريخية والاجتماعية العابرة التي أحاطت بنشأتها.

وقد كانت موضوعية الخشت تنبني على أساس عدم الانحياز لأي من طرف من أطراف الدراسات التي كتبها، ففي كتاب المعقول واللامعقول أقام دراسته بين كانط وهيجل على أساس تحليل مقارن متعمق للأديان في تقاطعها مع الميتافيزيقا على أساس موضوعي غير منحاز؛ لاكتشاف الدين الخالص وسط ركام التحولات التاريخية والأوهام الخرافية بعيدًا عن توظيفات الكهنة المشبوهة للدين، مع توجيه النقد للتفسير الشعبي القاصر لعقائده وشرائعه وتفنيد الهجوم الشكي على منابعه[15].

ومن سمات الموضوعية عند الخشت أنها كانت تتميز بالحيادية التي قوامها أمران: أمر موضوعي يتمثل في تقديم أفكار الفلاسفة والمفكرين بأمانة تامة، وأمر ذاتي يتمثل في الموقف الأيديولوجي النقدي الذي يتخذه الخشت مما يتناوله بالدراسة. ومن ثم فلم يكن من أولئك النفر الذين يعلنون الحياد في دراساتهم،

([15]) انظر المعقول واللامعقول، ص 3.

ولكنهم يبطنون داخلهم الانحياز البغيض والتعصب للفكرة والمذهب وإن كان على نحو غير مباشر، وإنما كان الخشت حياديًا، غير أن حياده ينتهي بانتهاء شرح وتحليل الأفكار الفلسفية عن المجتمع المدني مثلاً على نحو يجعلها واضحة أمام القارئ، وإن كان هذا لا يمنعه من انحيازه لموقف أيديولوجي معين تظهر فيه مواقفه النقدية من هذه الأفكار، وقد ظهر هذا واضحًا جليًا في كل أعمال الخشت الفلسفية[16].

لقد كان الخشت يدرك أنه من البديهي أن قراءة الموقف الجزئي لمفكر ما لا تكتسب دلالتها الموضوعية دون وضع هذا الموقف الجزئي في إطار الموقف العام الكلي، ومن ثم فقد كان ينظر بدءًا نظرة كلية للمشروع الفلسفي العام الذي يرتئيه الفيلسوف أو المفكر محل الدراسة؛ إذ بدون هذه النظرة لا يمكن فهم موقفه من القضايا الفلسفية، خاصة وأن الخشت كان يدرك خطورة النظر إلى المواقف الجزئية كجزر منعزلة بعضها عن بعض، ومن ثم فقد كانت هذه المواقف لا تمثل له جزرًا منعزلة، وإنما كانت عنده كالأواني المستطرقة التي تتفاعل محتوياتها تفاعلاً تامًا.

ومن مظاهر الموضوعية عند الخشت أنه كان ينتقد فكرة المطالبة بالمساواة المطلقة بين الجميع، لأن من يطالب بهذا لا يفهم أن "المساواة المطلقة" ضد "العدالة". ولئن كانت هذه النظرية تحتاج إلى توضيح على مستويات عديدة: سياسية واجتماعية واقتصادية ودينية. فإنه توقف عند المستوى الديني فقط؛ لأنه أقرب صلة بمجال تخصصه الفكري. يقول الخشت: "فأنا أفهم أن هناك "مساواة" في حرية العقيدة، لكن لا أفهم كيف أساوي بين المسلم والمسيحي في كل شيء؟

(16) انظر على سبيل المثال المجتمع المدني، سلسلة الشباب، الهيئة العامة لقصور الثقافة،الطبعة الأولى، 2004م، ص 7.

(ISSN : 2536 - 9555)

إن المساواة بينهما ضد "العدالة": ضد العدالة مع المسيحي، وضد العدالة مع المسلم! فقل لي بالله عليك: هل يستوى الاثنان في حكم أكل لحم الخنزير وشرب النبيذ وفي حكم تداولهما؟ وهل يستوى الاثنان في أحكام الزواج والطلاق وسائر الأحوال الشخصية؟! إن " العدالة" تقتضي التفرقة بينهما في الأحكام الدينية لا المدنية، فكيف نرفع شعار "المساواة المطلقة" في كل شيء؟.. فالعدالة تستوجب التمييز؛ لأن هناك أمورا مشتركة تقتضي المساواة، وهناك أمور مستقلة تقتضي "عدم المساواة" تحقيقا للعدالة مع الطرفين"[17].

خامساً – غلبة الروح النقدية:

إن من أهم معايير التفلسف وضوابطه ظهور النزعة النقدية في مؤلفات المفكرين ونتاجاتهم الفلسفية والفكرية([18]). وقد سعى الدكتور الخشت من خلال دراساته إلى الاستناد إلى المنهج النقدي، ويظهر هذا النقد أشد ما يكون وضوحًا في دراساته عن نقد فلسفة العقائد المسيحية عند ليبنتز، ومقارنته بين كانط وهيجل في كتاب المعقول واللامعقول في الأديان؛ حيث وجه النقد فيه لأكبر محاولتين في تاريخ الفكر الغربي لفحص الدين عقلانيًا: الأولى هي العقلانية النقدية عند

([17]) الخشت، نحو تأسيس عصر ديني جديد، وانظر الخشت أيضًا، لا للمساواة نعم للعدالة، بوابة الوطن، 2013/10/5م
http://www.elwatannews.com/news/details/335602

([18]) انظر عادل سالم عطية، من وحي للوحي معان أخرى قراءة نقدية للشكل والمضمون، كتاب عقلانية بلا ضفاف، ص 275. وبناء على هذه النزعة نقد الخشت مثلا الشهرستاني في العديد من الآراء التي تعلق بعلاقة البراهمة بالنبوة، انظر أبو النور الشريف، عرض نقدي وتحليلي لكتاب للوحي معان أخرى، كتاب عقلانية بلا ضفاف، ص 280. كما ظهرت في نقده لبرايتمان، انظر عماد الدين عبد الرازق، رؤية تحليلية ونقدية لكتاب الشخصية والحياة الروحية في فلسفة الدين عند برايتمان، كتاب عقلانية بلا ضفاف، ص 307.

كانط، والثانية العقلانية المنحازة عند هيجل، ونستطيع من خلال هذين النموذجين أن نحدد أهم الأهداف التي ارتآها الدكتور الخشت من وراء منهجه النقدي:

الأول: إعادة التفكير العقلاني الحر في الدين من حيث هو دين.

الثاني: تحليل ماهية الدين وماهية الفلسفة.

الثالث: تحديد العلاقة بين الدين والفلسفة والنقل والعقل.

الرابع: معرفة موقف الأديان العالمية من قضايا مثل: الألوهية، الوحي والنبوة، المعجزات، ماهية العبادة ووظيفتها، مشكلة الشر، الحياة الأخرى.

الخامس: معرفة منطق تطور الأديان.

إن النقد في مؤلفات الخشت آلية للإبداع، خاصة في كتاباته عن فلسفة الدين، إضافة إلى كتاباته في السياسة والأخلاق والاجتماع، وغيرها من كتاباته، " ويمكننا إيجاز نهجه النقدي في تعويله على تحليل البنايات اللغوية، وانتخاب الأنسب منها للسياق السردي، ويبدو ذلك في ترجماته عن الإنجليزية، ووضعه للمصطلحات الفلسفية المعاصرة، وثاني ضروب نهجه النقدي يبدو في تمكنه من قراءة البنية الفلسفية للنصوص، للكشف عن المسكوت عنه، وتوضيح ما التبس من أفكار، وما غمض من أنساق، غير عابئ بعواقب مخالفته لسلطة الكتابات السابقة والمغايرة لرؤيته"[19].

لقد هداه منهجه النقدي إلى كشف تناقض بعض أعلام الفلسفة الغربية، وخير مثال على ذلك نقده لصاحب العقلانية المنحازة هيجل، فقد وجد الدكتور الخشت أن سر تناقضه يكمن في أنه جعل المسيحية حدًا نهائيًا مكتملاً لتطور الروح

([19]) د. عصمت نصار، تقديم كتاب عقلانية بلا ضفاف، الظاهرة الدينية والظاهرة السياسية في أعمال الخشت الفكرية، ط دار الكتاب العربي، دمشق– القاهرة، 2013م، ص11.

(ISSN : 2536 - 9555)

الديني، مع أن نسقه بحكم منهجه الجدلي كان ينبغي أن يظل مفتوحًا– والخشت بنظرته الثاقبة اكتشف هذا– لأن الدكتور الخشت كان يؤمن بأن هيجل قام بفتح النسق الفلسفي المغلق عند كل من اسبينوزا وكانط، بإدخال فكرتي الصيرورة والتاريخ عليه؛ حتى يتمكن من تطويره والوصول به إلى آفاق رحبة غير ساكنة، لكن الدكتور الخشت وجد أن هيجل اضطر إلى غلقه مرة أخرى بدافع انحيازه المسبق لكل من المسيحية والملكية البروسية عندما جعل المسيحية هي نهاية الروح الديني، بوصفها الدين المطلق عنده، وعندما جعل الملكية البروسية قمة النضج السياسي ونهاية التاريخ، ونظر إلى فلسفته باعتبارها الفلسفة المطلقة النهاية المعبرة عن تطور الروح واكتماله. وقد كانت هذه الفكرة الهيجلية مثار نقد الخشت الممتزج بالتعجب والاستنكار باعتبار أن الروح الجدلية لمنطق هيجل كانت تحتم عليه ألا يقع في مثل هذا التناقض الضخم الذي كان في غنى عنه لو سار مع تلك الروح الجدلية حتى آفاقها المنطقية غير النهائية، دون أن يقف عند مرحلة تاريخية معينة، ففكرة السلب الهيجلية العميقة تجعل التاريخ – كما يؤكد الدكتور الخشت – مفتوحًا غير مكتمل دومًا، لكن الانحياز الأيديولوجي – وما أقوى تأثيره على المرء في نظر الدكتور الخشت – هو المسئول عن تخلي بعض الفلاسفة عن أسمى منجزاتهم العقلية من أجل بناء مذهب فلسفي منحاز، وعندما ينحاز المذهب فما أكثر عثراته وتناقضاته[20].

ويتسم الموقف النقدي عند الخشت بمجموعة من السمات:

أ. ولقد كان الدكتور الخشت يبني نقده على أسس موضوعية صرفة، فتوسلاً للأمانة والموضوعية كان يحرص على إرجاء النقد إلى ما بعد الوقوف على الشرح النصي، وقد تجبره الأمانة العلمية أن يؤخر النقد الشامل الكلي إلى

([20]) انظر المعقول واللامعقول في الأديان، ص 5، 6.

نهاية دراسته، وإن كانت الظروف تفرض عليه حينها توجيه بعض الانتقادات الجزئية التي تفرض نفسها على السياق، وخير مثال على ذلك انتقاداته في كتب مثل:

فلسفة العقائد المسيحية.

العقلانية والتعصب.

العقل وما بعد الطبيعة.

الميتافيزيقا.

الفلسفة الحديثة قراءات نقدية.

ب. النقد الذي كان يوجهه الخشت في دراساته يعبر عن وجهة نظره الخاصة المبنية على قراءات متأنية لموضوع الدراسة التي يتناوله، وليس نقدًا مستعارًا من أحد، أو من التاريخ النقدي للسابقين، غير أنه إذا كان ثمة نقد سبقه إليه غيره أشار إلى ذلك بكل تواضع.

ويكفي أن نعلم أنه بناءً على هذه السمة فقد نقد النزعة العدمية التي وإن جاءت لترفض المذاهب الفكرية التي تدعي امتلاك الحقيقة المطلقة واليقين والمعنى الأوحد، كما تجلت عند نيتشه وهيدجر وفرويد وغيرهم. وجاءت حركات ما بعد الحداثة لتسير على هذا المسار من العدمية. وهو مسار له جذوره في الفكر القديم، فإنه كحالة ميز ما بعد الحداثة كنوع من التمرد الذي مارسه بعض الفلاسفة على الأنساق والمنظومات الأيديولوجية، نتيجة المآسي التي انتهت إليها، والأزمات التي وقعت فيها، والسلبيات التي تمخضت عنها، وأوقعت فيها الإنسان المعاصر مثل الحروب العالمية، والاستعمار، ووصول الجماعات المتطرفة التي تملك وسائل القوة إلى الحكم، وتدمير البيئة واستنزاف مواردها، والتناقضات في الأحكام، وازدواج

(ISSN : 2536 - 9555)

المعايير، وزيف "العلامات"، والخداع الإعلامي الذي يصنع عالما فوق الواقع ومغايرا له، إلخ(21).

ج. النقد عند الخشت نقد فكرة ونقد منهج، إذا لم يكن يهمه نقد الشخص، ولكم كان يهمه نقد الفكر والرأي والاتجاهات والتيارات، ومن ثم فهو نقد غير مبني على تعصب أو عداء. ومن ثم فقد وجدناه ينقد التفكيكية دون أن يجرح بالنقد أشخاصها، ليس حبًا فيهم، ولكن ترسيخًا للمنهج العلمي القائم على أن النقد نقد فكرة وليس نقد شخص. ومن ثم فقد كان يرى في التفكيكية تمردًا على أنساق الحداثة، فبعد أن سقط الوعي الأوربي المعاصر في حالة من الصورية والشكلانية مع البنيوية، كان سقوطه الثاني في التفكيك المروع مع جاك دريدا ورفاقه في مرحلة ما بعد الحداثة التي تنكرت لكل مرجع، وألغت كل مركز، ونفت كل جوهر، ودعمت اللامركزية والتشظي."إن التفكيكية مدرسة تقويض ونقد شامل دون أية محاولة لإعادة البناء، وهي تنكر وجود أية قيمة مطلقة، وتقوض فكرة الحقيقة الموضوعية، وتحطم التمركز حول العقل، وتزعزع الفكر الغربي– بل والإنساني– الذي يقوم على مفهوم "المركز الثابت للفكر" مثل المعنى أو الذات أو الحقيقة أو فكرة السببية. وتنظر إلى "النص" باعتباره ممزق المعنى ومفكك الدلالة، فليس له وحدة معنى وليس له مركز ثابت. أما الشخصية الإنسانية فقد ذهبت هباء؛ فلا وحدة لها، ولا ذات تلم شتاتها!"[22].

وتتجلى تهافتات النزعة التفكيكية– كما صورها الخشت– في "ما بعد الحداثة" في تأكيدها على عجز اللغة عن أداء المعنى، ووجود تفسيرات غير محدودة ممكنة للنص، مع غياب القدرة على الترجيح بين المعاني؛ ومن ثم ضياع النص؛ ناقدًا

(21) الخشت، مقال العدمية (مقال غير منشور).
(22) الخشت، نحو تأسيس عصر ديني جديد ص 50.

لما يقوله جاك دريدا من أنه لا يكون نص نصا إن لم يُخْفِ على النظرة الأولى، وعلى القادم الأول، قانونَ تأليفه وقاعدة لعبه. ثم إن نصا ليظل يُمعن في الخفاء أبدا. وليس معنى هذا أن قاعدته وقانونه يحتميان في امتناع السر المطوي، بل أنهما، وببساطة، لا يُسلمان أبدا نفسيهما في الحاضر لأي شيء مما تمكن دعوته بكامل الدقة إدراكا. وذلك بالمجازفة دائما (أي من لدن النص)، وبفعل جوهره نفسه، بالضياع على هذه الشاكلة نهائيا. من سيفطن لمثل هذا الاختفاء أبدا؟ يمكن لخفاء النسج بأية حال أن يستغرق، في حل نسيجه، قرونا[23].

ومن ثم فكل قراءة عند الخشت ليست مطلقة، وكل تأويل هو عنده نسبي، وكل محاولة لإدراك النص ليست نهائية؛ " فالنص يظل يُمعن في الخفاء أبدا! والإنسان "سجين اللغة"، ولا يستطيع عبورها إلى الواقع، بل إن اللغة هي مرآة غير دقيقة للواقع الذي نعرفه من خلالها، والإنسان لا يستطيع تجاوز ذاته إلى حقيقة ما خارج الذهن، فالموضوعية غير ممكنة؛ ولا شك أن في هذا عود من جهة للذاتية المفرطة المنكرة لوجود المعنى الموضوعي، وعود من جهة أخرى للإرادية التي نعتبرها أيضا أحد جذور النزعة العدمية[24].

وبالقدر نفسه الذي نقد فيه الخشت التفكيكية نقد الوضعية، ولم يكن يهمه نقد الشخص وإنما الذي كان يهمه نقد الفكرة التي تحمل الوضعية بمختلف صورها،ونقد الوضعية عند الخشت كان نقدًا مبنيًا على أسس عقلية وواقعية واضحة، ويستخدم الخشت في نقده للوضعية منهجية ضرب الأمثال ببراعية، يقول ناقدًا: "إن العالم أوسع بكثير مما يظن الوضعيون؛ فهم أشبه بمجموعة يجلسون بين جدران بيت مغلق يحسبونه الوجود كله! ويعجزون عن الوصول إلى الواقع

(23) الخشت، السابق، ص 56.
(24) الخشت، السابق، ص 57.

(ISSN : 2536 - 9555)

وإدراك أنه أكبر من أن ينحصر في هذه الجدران الضيقة؛ لأنهم على تنوعهم يقصرون مجال المعرفة على الظواهر العينية أو الإحساسات الذاتية، ويضعون مهمة الفلسفة والعلم إما في جانب ضيق هو التحليل المنطقي للغة في حالة الوضعية المنطقية، وإما في العلم الوضعي في حالة الوضعية الاجتماعية عند كونت وفي حالة الوضعية العلمية عند رينان"[25].

ولم ينقد الخشت الوضعية هباءً وإنما نقدها لمضمونها غير الهادف؛ إذ لم تقدم الوضعية بكل صورها في رأيه – ورأينا أيضًا – أي حل للمسائل الفلسفية الكبرى التي تشغل الإنسان، من قبيل: أصل العالم، ومصيره، وحرية الإرادة. وجاءت الوضعية الجديدة لتواصل هذا القصور؛ إذ لم تتمكن من تبين أن الحقيقة تكمن في العالم الخارجي الواقعي وفي النفس الإنسانية (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق). ومن ثم عجزوا بمختلف تياراتهم عن تقديم بديل للدين أو الأنطولوجية[26].

ثالثاً - محاور الخطاب الفلسفي عند الخشت:

نستطيع من خلال استقراء كتب الدكتور الخشت أن نفهم كثيراً من المذاهب الفلسفية القديمة والمعاصرة، التي يدين بها، والتي أثرت فيه تأثيراً كبيراً، وهي مذاهب– في التحليل الأخير– تجمع بين الشرقية والغربية، القديمة والحديثة تدل بالأحرى على أن فيلسوفنا كان يبحث عن الحقيقة أياً كان مصدرها، لا يهمه في ذلك صعوبة الجهد المبذول للوصول إليها، ولا بعد هذه المصادر عن دائرة الثقافة الإسلامية. والحق أن مذهب الدكتور الخشت يتشكل من اتجاهات شتى: فنجد

([25]) الخشت الإسلام والوضعية والاستشراق في عصر الأيدولوجية، ط دار نهضة مصر، القاهرة، 2007.ص 32، وانظر ص 65.

([26]) الخشت، السابق.

لديه بعداً عقليًا صرفاً، ومنطقياً فائقاً، وسياسيًا مدنيًا، وإصلاحيًا تنويريًا، وفقهيًا معتدلاً، ووسطيًا عقدياً' فإن هذه الفروع المذهبية كلها تؤلف المذهب العام الذي أراده وارتآه الدكتور الخشت. وهي كلها يمثل الولوج فيها خروجًا بإشكاليات وقضايا تصلح للأخذ والرد والمناقشة، وهذا بدوره هو ما صنع الدكتور الخشت الذي نعرفه، فلم تكن تستهويه الموضوعات المرتادة أي التي سبق قتلها بحثاً أو تلك الموضوعات التي لا تحتوي على مناوشات ومناقشات وردود وتفسيرات. وإنما ارتاد أرضاً خصبة، فدرس الفلسفة الحديثة والمعاصرة، ودرس مقارنة الأديان، واتجه بفكره إلى الفقه، وفي الأخلاق ارتضى الحد الأدنى الأخلاقي المشترك، وغيرها من الموضوعات المهمة والجادة.

ويمكن القول إن الدكتور الخشت ولج أغلب فروع الفلسفة – إن لم يكن كلها– ولكن كان مهتماً في ولوجه هذا بالابتكار والابتعاد عن التقليد، وإبراز وتبني الرأي الحر الذي لا يقلد فيه آخرين، وإن ارتأى رأياً لسابقيه يعجبه دلل عليه ببراهين وأدلة من عنده كدليل على تمسكه به. وكما يمكن تطبيق هذا الأمر على ولوجه في الفلسفة الحديثة والمعاصرة، والإصلاح، والفكر العالمي، ومناهج البحث، فكذلك يمكن تطبيقه في ترجماته، وقد رأينا كيف يختار الكتب ذات الموضوعات والنظريات الحديثة التي تفيد أرض الشرق، والوطن العربي كله، مما يسهم في إحداث ثورة ثقافية فيها.

إذن فلنا أن نقول إن الدكتور الخشت كان أكثر توافقاً مع نفسه ومع مذهبه في الحياة، ومذهبه السياسي، ومذهبه العلمي والمعرفي بحيث تكوَّن هذا المذاهب كلها منهجاً متسقاً واحداً للخشت المفكر والسياسي والفيلسوف.

وإذا أردنا الحديث عن مذهب الدكتور الخشت تفصيلاً وجب علينا أن نفهم موقفه من التيارات الفلسفية والفكرية التي كانت– ولا زالت– شائعة في عصره والعصور السابقة عليه، ولماذا كان يدين بهذا الاتجاه دون غيره؛ لأنه " من كل

(ISSN : 2536 - 9555)

هذا نتبين أنه صاحب نسق فلسفي متكامل: معرفة، ميتافيزيقا، أخلاق، دين، سياسة، اجتماع، وهذا جعل د. الخشت صاحب أسلوب عقلي تحليلي تأويلي نقدي منهجي منظم"[27].

ومن ثم فإن الخطاب الفلسفي عند الخشت يقوم على المحاور الآتية:

أولاً- بناء فلسفة عقلانية:

أول ما يلفت النظر في دراسة الدكتور الخشت للفلسفة الغربية أنه كان يقف منها موقف الند للند، لا الند بمعنى الخصم، ولكن الند بمعنى النظير المشارك الفعال الذي لا يقل الفكر الذي يمثل هويته وعقيدته عن الفكر الغربي، ومن ثم فقد غلبت عليه حماسة بالغة، تلك الحماسة البالغة التي يظهرها في الدفاع عن الفلسفة العربية التي يمثلها ضد موجات الافتراء والتشويه التي تعرضت لها، محاولاً– في توفيق– إظهار الوجه النقي والحقيقي له ولفلسفته التي بإمكانها بعث الأمة بعثاً جديداً نحو التطور والارتقاء. لقد كان الدين يواجه مواجهة طاغية من رجال الفلسفة والفكر الغربي من أمثال: هيجل، وكانط، ورينان، ومن سار على نهجهم حيث ذهبوا –قصداً أو جهلاً بمؤلفاتنا وجهودنا – إلى أن الدين لا دور له في بناء أي تقدم حضاري ترجوه الإنسانية.

فجاء الدكتور الخشت وشرح فلسفة الدين كما يراها العقل والدين الإسلامي، فحرث في أرض خالية، وسار ضد التيار مدافعاً عن فلسفة عقلية يريد أن يفني حياته من أجلها وفاءً لعقيدته وعقله، ولفت النظر إلى تلك الآراء الخاصة التي تعج بها مؤلفاته الشخصية التي تهدم ما ذهبوا إليه من أساسه. لقد ساهم الخشت في إنقاذ الفلسفة الدينية من الافتراء الذي لحق بها شرقًا وغربًا.

([27]) د. عبير عبد الغفار، السمات المنهجية للدكتور محمد عثمان الخشت، كتاب عقلانية بلا ضفاف، ص 82.

لقد أبى الدكتور الخشت أن يكون مقلدًا لهؤلاء الفلاسفة الغربيين في موقفهم من الدين، رافضًا أن يردد ما يرددونه، رافضًا في الوقت نفسه موقف من سار على دربهم من بني جلدتنا ممن أخذوا يرددون ما قاله هؤلاء الفلاسفة، فصاروا – في رأيي – أقصى وأشد على الفلسفة الدينية من هؤلاء الفلاسفة أنفسهم، ففصلوا بين عقلانيتهم وعقيدتهم.

ويظهر فكر الخشت في نقد الفلسفة الغربية من خلال المؤلفات الآتية:

أ. الدين والميتافيزيقا في فلسفة هيوم[28].

ب. مدخل إلى فلسفة الدين[29].

ج. العقل وما بعد الطبيعة بين فلسفتي هيوم وكانط.

د. أقنعة ديكارت العقلانية تتساقط.

هـ. العقلانية والتعصب[30].

فعلى سبيل المثال نقد الخشت رينيه ديكارت (1596–1650) عندما ادعي كثيرون أن فلسفته فلسفة الوضوح والتميز؛ مما يعني أنها فلسفة واضحة الدلالة ولا تحتمل أكثر من تفسير.. ومن ثم فإنه كان ينظر إلى هذا الادعاء على أنه ليس حقيقيًا، وأن الفلسفة الديكارتية لم تكن محكمة الدلالة؛ لأنها على العكس كانت فلسفة تثير الاشتباه، أي تحتوي على نصوص ومواقف فلسفية متشابهة، فقد أكد الخشت على أن ثمة ثنائية في فلسفة ديكارت، تكشف عن تناقضات في مواقفه، فلم تكن العقلانية أمرًا محسومًا فيها، بل كانت هذه العقلانية مجرد قناع أخفى

([28]) ط القاهرة، دار قباء / 1997م.

([29]) ط القاهرة، دار قباء، 2001م.

([30]) ط القاهرة، دار نهضة مصر، 2007م.

(ISSN : 2536 - 9555)

وراءه ديكارت اتجاهاته اللاهوتية، ومن ثم كان الخشت مؤصلاً لنظرية الاشتباه الفلسفي التي لم يفطن إليها الكثيرون من المعاصرين[31]. وهذه الفكرة التي طرحها الخشت في موقفه من العقلانية الديكارتية تتميز بالأصالة، فهي تقف على طرفي نقيض من مما اعتاده الكثيرون النظر به إلى ديكارت باعتباره فيلسوف الوضوح والتميز وإمام المنهج العقلي[32].

على أنه ينبغي التأكيد على أن المتشابه عند الخشت– وهو في سبيل نقده لديكارت– لا يكون في الألفاظ فقط، بل قد يكون في العبارات والنصوص الكاملة؛ ومن الجائز أن يكون الاشتباه كذلك في النسق الفلسفي ككل؛ فالاشتباه سمة لكل ما يحتمل تفسيره أكثر من دلالة، ومن هنا قد تكون فلسفة عنده بأكملها متشابهة[33]. وقد عول الخشت على ما سبق أن استخدمه حسن حنفي من مفهوم الاشتباه في عدد من دراساته الفلسفية. وعلى سبيل المثال استخدامه له في دراسته لفلسفة هيجل. وفي سياق بيانه للاشتباه في الفكر الديني عنده، حيث أشار إلى أن الاشتباه "يعنى وجود المتعارضين في آن واحد، وإمكان الحكم على الموقف كله ابتداء من أحد المتعارضين، وبالتالي وجود حكمين متعارضين على شيء واحد"[34]، وبهذا المعنى للاشتباه قرأ حسن حنفي كذلك فلسفة ديكارت، فهي تنطوي على مواقف متعارضة[35]، ولذا يتساءل:"هل موقف ديكارت بالنسبة للدين

([31]) الخشت، أقنعة ديكارت العقلانية تتساقط، القاهرة، دار قباء، الأولى، 1998م، ص70.

([32]) انظر د. شعبان عبد الله محمد، عاشق التأويل بين الواقع والمأمول قراءة في فكر الدكتور محمد عثمان الخشت، دراسة منشورة بكتاب عقلانية بلا ضفاف، ص 39.

([33]) انظر الخشت، السابق، ص 73، 74.

([34]) د.حسن حنفي، قضايا معاصرة: في الفكر الغربي المعاصر الجزء الثاني، بيروت، دار التنوير، ط1، 1982. ص 156.

([35]) انظر: د.حسن حنفي، مقدمة في علم الاستغراب، القاهرة، الدار الفنية،1991، ص250 وما بعدها.

موقف المفكر الحر أو موقف المبرر التقليدي ولكن بأسلوب أذكى وبطريقة أوضح؟"[36].

ومن هذا الطرح الإشكالي لنقد الخشت للموقف الديكارتي من الدين انبثقت عدة أسئلة حول فلسفة ديكارت: فهل فلسفة ديكارت فلسفة متشابهة تحتمل أكثر من معنى أم أنها فلسفة محكمة الدلالة؟ هل فلسفة ديكارت فلسفة تنطوي على مواقف غير واضحة ومتميزة أم فلسفة تعطي نموذجا للفكر الواضح والمتميز؟ هل هي فلسفة عقلانية أم لاهوتية؟ هل العقلانية أمر محسوم فيها أم أن العقلانية مجرد قناع أخفى وراءه ديكارت اتجاهاته اللاهوتية؟ هل هي فلسفة تتخذ نقطة البدء فيها من الإنسان أم من الله.. من الفكر الخالص أم من الضمان الإلهي؟ وأخيرا هل هي فلسفة تعتمد على معيار الوضوح والتميز في معرفة الحق من الباطل أم تعتمد على الصدق الإلهي؟[37].

يقول الخشت ناقدًا أحد أعلام الفلسفة الغربية في تأكيد واضح على نظرية الاشتباه: " هذه الأسئلة يسعى هذا البحث لمحاولة الإجابة عليها. وقد دفعنا إلى إثارتها أن فلسفة ديكارت فلسفة تشتمل على نصوص متشابهة بالمعنى الذي أوردناه سابقا، وأن نسقه الفلسفي في علاقته بالدين محل اشتباه في تفسيره، ذلك أن ديكارت يُعد من بين الفلاسفة الذين أثاروا نوعا من الجدل في تاريخ الفلسفة، بالرغم من المقولة الشائعة عنه من كونه فيلسوف الوضوح والتميز والعقلانية الخالصة! ولو كانت هذه المقولة صادقة لما كان ديكارت مثيراً للجدل حول طبيعة موقفه الفلسفي في علاقته بالدين؛ فتعدد التفسيرات وتباينها لأكبر دليل على أن النسق الديكارتى غير واضح، وأن منهجه يتسم بالغموض أحياناً، وعدم الصرامة

([36]) د.حسن حنفي، قضايا معاصرة،ج2/ ص157.

([37]) الخشت، أقنعة ديكارت العقلانية تتساقط، ص 73، 74.

(ISSN : 2536 - 9555)

المنطقية في أحيان أخرى، بل أن ثمة ثنائية في فلسفة ديكارت، تكشف عن تناقضات في مواقفه، ولعل هذه السمة هي التي أدت إلى أن يكون منبعا لمدرستين متباينتين في الفلسفة الحديثة"[38].

وكأن الخشت قد تأثر هنا بجاك دريدا الذي كان يرى أن النص لن يكون نصًا ما لم يخف على النظرة الأولى وعلى القادم الأول قانون تأويله وقاعدة لعبه[39]. بل لقد تأثر بديكارت ذاته الذي كانت أول قاعدة من قواعد منهجه العقلي هي: ألا أقبل شيئًا على أنه حق ما لم أعرف يقينًا أنه كذلك، بمعنى تجنب التهور والسبق إلى الحكم قبل النظر، وألا أدخل في أحكامي إلا ما يتمثل أمام عقلي في جلاء وتميز، بحيث لا يكون هناك أي مجال لوضعه موضع الشك[40]. وهكذا يثير الخشت مفهوم الاشتباه في الفلسفة الديكارتية في مقابل من جعلوا من ديكارت أكبر داعية للمنهج العقلي في الفلسفة الغربية الحديثة[41].

وإذا كان أغلب المؤرخين يعتبرون ديكارت "أباً للفلسفة الحديثة"، وأنه معروف بهذا عالميا، باعتباره مؤسساً لنسق فلسفي عقلاني انطلاقاً من الفكر الخالص ذي الوضوح والتميز، وهذا لم يرتضه الخشت، فاتجه إلى تمحيص هذا الادعاء ووضعه على ميزان البحث؛ فما العقلانية الديكارتية عنده بأمر تدل عليه نصوص ديكارت دلالة قطعية الدلالة، فنظر إلى فلسفة ديكارت

([38]) الخشت، أقنعة ديكارت العقلانية تتساقط، ص 74، 75.

([39]) انظر جاك دريدا، صيدلية أفلاطون، ترجمة كاظم جهاد، تونس، دار الجنوب للنشر، 1998م، ص 72.

([40]) انظر ديكارت، مقال في المنهج، ترجمة محمود الخضيري، القاهرة، سميركو للطباعة والنشر، الطبعة الثالثة، 1985م، س 75.

([41]) انظر غيضان السيد علي، الخشت ووجه آخر للفيلسوف ظاهرة الاشتباه في الفلسفة الحديثة، دراسة منشورة بكتاب عقلانية بلا ضفاف، ص 72.

ككل، وليس إلى بعضها فقط، فوجد نصوصًا تدل على اتجاه عقلاني، كما وجد نصوصًا تدل على وجود اتجاه لاهوتي في تفكيره، وهو ما استدعاه إلى إعادة النظر في فلسفته عامة وفكره الديني خاصة انطلاقا من مفهوم الاشتباه، كما كان يستدعيه تساؤل مؤداه: هل العقلانية مجرد مظهر أخفى ديكارت وراءه اتجاهاته اللاهوتية التي لا تخرج عن كونها عقائد المسيحية وقد ارتدت لباس الفكر الخالص ورفعت لواء العقلانية الحديثة؟ وهذا ما انتهى إليه بالفعل.

كما بدا نقد الخشت للفلسفة الغربية في موقفه من الاعتقاد بين الإرادة والبرهان عند وليم جيمس؛ حيث بدا له وليم جيمس في تأسيسه للاعتقاد على الإرادة وكأنه يعطي معنى جديدا للطريقة اللاهوتية في الإيمان دون برهان "آمن ثم تعقل"، وكأن ما يقوله جيمس هو– على حد تعبير الخشت– نبيذ قديم في زجاجة جديدة. فهذه هي طريقة اللاهوت المدرسي مصاغة بلغة فلسفية براجماتية.وقد نقد الخشت ذلك؛ لأن مبدأ "آمن ثم تعقل" هو مبدأ اللاهوت، وهو المبدأ الذي وجده مخالفًا لمبدأ الأنبياء، فمبدأ الأنبياء أنفسهم في دعوتهم إلى الدين يبدأ بتقديم البرهان بمعنى ما، أو الدليل، فهذا موسى عليه السلام يقدم المعجزات الحسية ومن بعده عيسى عليه السلام يسير على الدرب نفسه، كبراهين أو بمعنى أدق أدلة على صدق دينهما، أي أنهما يعولان على الدليل كطريق للاعتقاد، وليس على الإرادة. "وإن كان من الملاحظ أن منهجهما في التدليل غير مباشر لأنه لا يستقي الدليل من داخل الدين نفسه، وإنما من آيات خارجية طارئة هي المعجزات. فهو برهان غير مباشر، أو إذا شئنا الدقة الاصطلاحية هو دليل غير مباشر؛ لأن البرهان غير المباشر له معنى اصطلاحي لا ينطبق على هذه الحالة"[42].

([42]) الاعتقاد بين الإرادة والبرهان عند وليم جيمس، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، عدد4، 2001م، ص 32.

(ISSN : 2536 - 9555)

ومن ثم فقد نقد الخشت الفلسفة الغربية لا نقد تعصب مذهبي أو عرقي أو عقدي؛ لأنه وهو في سبيل تأسيس منظوره العقلي لا يبغي غير ما يوافق العقل، وبما أن الشرع عنده لا يخالف العقل، فهو ينطلق من أرضية عقلية عقدية. ولئن كانت المسيحية قد واجهت دومًا تحديات كبرى، فإن الخشت كان يرى أن موجة نقد العقلانية التي تعرضت لها في القرن السابع عشر كانت واحدة من تلك التحديات الكبرى التي قابلتها في تاريخها الطويل؛ إذ لا تقل في خطورتها وقدرتها على التهديد في الوجود عن موجات العنف التي تعرضت لها في بداياتها، كما أنها كانت تجد – عند الخشت – دومًا في كل تحد من هذه التحديات من يدافع عنها ويأخذ بيديها؛ لكي تستمر في الوجود. ولذا كان ليبنتز عند الخشت أحد الأفكار الدالة على تقليله من قيمة العقل لصالح العقيدة، فقد كان من أولئك النفر الذين عملوا بجدية على الدفاع عن المسيحية بداعي قدرتها على مواجهة موجة النقد العقلانية التي كانت علامة فارقة من علامات عصر العقل، عصر القرن السابع عشر[43].

ثانياً- بناء نسق وسطي معتدل:

وهي ثالث الصفات التي يمكن استخراجها من إنتاج الدكتور الخشت الفكري، وتطالعنا هذه الصفة أول ما تطالعنا في مقدمته الشهيرة "تطور الأديان قصة البحث عن الإله"[44]، وكتاب " العقائد الكبرى بين حيرة الفلاسفة ويقين الأنبياء"[45] وهما الكتابان اللذان يمثلان تحليلاً مميزًا للأديان من ناحية قبولها للعلم أو الوقوف ضده، مؤكدًا على أن الدين اكتسب مكانته – إلى جانب أمور

([43]) انظر فلسفة العقائد المسيحية، قراءة نقدية في لاهوت ليبنتز، القاهرة، دار قباء، 1998م، ص 7.

([44]) ط القاهرة، مكتبة الشروق، 2010م.

([45]) ط دمشق، دار الكتاب العربي، 2010 م.

أخرى– بما يتضمنه من احترام للعقل ووضعه في المكانة اللائقة به، في حين وقفت أديان أخرى عند حدود النص متجاهلة مخاطبة العقل الذي يعد الميزة الأساسية التي يتميز بها الإنسان على غيره من المخلوقات. كما تطالعنا في كتاب: جارودي.. لماذا أسلمت؟ فهذا الكتاب يبين فيه الخشت المراحل الفكرية التي مر بها جارودي من مسيحية بروتستانتينية وماركسية انتهاء بالإسلام، وهو غير متحيز علميًا لأي من هذه المراحل، التي كان يراها قد شكلت جارودي فكريًا[46]. وهذا التناول يشي بروح الاعتدال في معالجته للقضايا.

لقد أراد الدكتور الخشت وسطية دينية من نوع خاص: وسطية معتدلة تمزج بين العقل والدين، فشرح الدين في ضوء العقل، ونقد العقل في ضوء الدين. لقد نقد رينان في مسألتي العلم والدين– وهو النقد نفسه الذي شمل كثيرًا من المستشرقين– لأن موقفه ينافي الإيمان والعقل، ثم صححه في ضوء الفكر الأفغاني القائم على إثبات المسألتين بالناحيتين: الإيمانية والعقلية، ثم لم يرهبه أن يوافق الأفغاني وينقد رينان في مسائل: فرعية متعلقة بهاتين القضيتين؛ إذ وجد فهمًا واضحًا لموضوع العلم والدين من قبل الأفغاني استخلصه من ثنايا القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة. ومن ثم فقد وجّه الخشت رينان الوجهة الصحيحة التي كان عليه أن يلتزم بها في مسألة الدين والتطور العلمي، والدين والحياة عامة من خلال آراء الأفغاني. والحق أنه ما فعل ذلك إلا لأن الأفغاني العقلي يعالج جميع المسائل بالاستعانة برافدي: العقل والإيمان، ومن ثم وجدناه يعّول على رأيه الكائن بكتاب "الرد على الدهريين" كنموذج واضح على نقض

(46) انظر د. غيضان السيد علي، تحولات جارودي – قراءة في كتاب جارودي لماذا أسلمت للدكتور محمد عثمان الخشت، كتاب عقلانية بلا ضفاف، ص 324، 325، 330.

(ISSN : 2536 - 9555)

الآراء التي تنتقص من الدين كأحد الروافد المعرفية العقلية في معالجة الكثير من القضايا الفلسفية[47].

ومن الجدير بالذكر أن أصرح بأن الدكتور الخشت أراد الوسطية التي كان عليها جمال الدين الأفغاني وتلميذه محمد عبده، وسطية قوامها عقل ودين، أصالة وتجديد؛ إذ بها عنده – في رأيي– يتحقق للوطن العربي المسلم كل ما يتمنى من ألوان التقدم والازدهار والرخاء.

وبناء على هذه الوسطية نقد أسرار الباطنية والفرق الخفية في كتابه: حركة الحشاشين، تاريخ وعقائد أخطر فرقة سرية في العالم الإسلامي؛ حيث درسها الخشت مبينًا في وضوح القضايا الأساسية المتعلقة بهذه الفكرة، ومن ثم فقد درسها من حيث[48]:

- الأحداث التاريخية المواكبة لنشأة الحركة وتطورها واضمحلالها.
- الأصول التاريخية لحركة الحشاشين.
- حركة الحشاشين النشأة والتطور.
- حركة الحشاشين في إيران
- حركة الحشاشين في سوريا.
- نظرية الوجود.
- عقائد ما بعد الموت.
- نظرية الإمامة.
- التنظيم السري للدعوة.

([47]) انظر جمال الدين الأفغاني، الرد على الدهريين، القاهرة، مطبعة الموسوعات، 1320هـ

([48]) ط القاهرة، مكتبة ابن سينا، 1988م.

وهي الأفكار الأساسية التي انطلق منها الخشت إلى التأكيد على المنزع الباطني الذي تقوم عليه أفكار الجماعة، وهي الأفكار التي يقوم عليها أي اتجاه باطني، مبينًا في أناة أن الفكر الباطني كان معول هدم على مر التاريخ الإسلامي، مؤكدًا على أن الجماعة كانت دليلاً على الإرهاب السياسي والعقدي، ومع هذه فإن هذا الإرهاب كان الخشت يراه على أنه رد فعل على الإرهاب الذي تمارسه السلطة الحاكمة في مواجهة الأحزاب الأخرى؛ لأن كلاً منهما يضع هدفًا يقوم على تقويض ما يعتبره مصدرًا للشرور التي تعبث في المجتمع المعني فسادًا وتدميره تدميرًا كاملاً[49].

وتظهر وسطية الخشت الدينية في نقده ورده لآراء وأفكار برايتمان في دراسته عن الإله والإنسان، إشكالية التشابه والاختلاف في فلسفة برايتمان، وهي الدراسة التي تنتقد بشدة التصورات الخاطئة للإله، كما تنتقد دعاوى التشبيه والتجسيم التي انطلق منها برايتمان، وعلى الرغم من أن حركة برايتمان كانت تحاول الرد والإجابة على أشكال الإلحاد ومظاهره في أوروبا عن طريق الإيمان بألوهية محدودة ومتناهية في بعض جوانبها، وذات قدرات لا متناهية في جوانب أخرى، فإنها قدمت في نظر الخشت – وفي نظر العقل السليم – تفسيرات خاطئة عن العديد من القضايا منها: إشكالية الشر في العالم مثلاً، ومن ثم فقد نقد الخشت أفكار هذا المفكر التي تزعم الانطلاق من الخبرات الإنسانية في رؤيتها للإله كشخص متناه زمني، ومن ثم فقد نقد الخشت الفلسفة التي تزعم شخصانية الإله وتناهيه وتزمنه على أساس منهج تجريبي[50].

([49]) انظر حركة الحشاشين، ط مكتبة ابن سينا، القاهرة، 1988م، ص 202، 203.

([50]) انظر الإله والإنسان، إشكالية التشابه والاختلاف في فلسفة برايتمان، ط دار قباء الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2007م، 7 : 9.

(ISSN : 2536 - 9555)

ومن ثم نقد الخشت برايتمان نقدًا عقلانيًا وسطيًا يتأسس بالدرجة الأولى على مقتضيات إيمانية عقلية؛ إذ كيف يمكن دراسة الذات الإلهية تجريبيًا، ألا يعني هذا وضع الإله على محك الاختبار التجريبي المتناهي وإخضاع السرمدي للزماني؟ ثم يتسائل الخشت مستنكرًا وهل لدينا من مناهج المعرفة الدقيقة ما يؤهلنا على هذا النحو لوصف الطبيعة الإلهية التي ليس لنا بها خبرة مباشرة مثل خبرتنا بالطبيعة الفيزيائية؟! ويواصل الخشت تساؤلاته النقدية وإذا كنا فشلنا حتى الآن في الوصول إلى علم نفس دقيق بالطبيعة النفسية الإنسانية التي نعيشها، فكيف لنا أن نزعم معرفتنا بالطبيعة الإلهية؟! أليست محاولة اكتشاف الإله لا تخرج عن كونها محاولة جغرافية ترسم خريطة لمنطقة لا جغرافية؟[51].

ولقد تجلت وسطية الخشت في دفاعه عن الإسلام ضد الوضعية والاستشراق[52]، فقد كان دفاعه عن الإسلام ليس دفاعًا عن موروث ديني آمن الناس به تقليدًا ومحاكاة، وإنما كان دفاعًا عن المنهج العقلي الذي يحمله هذا الموروث، ومن ثم فقد رفض الخشت الوضعية التجريبية التي أحالت الحياة البشرية بنظرياتها الغريبة إلى صراع دائم من أجل اللذة والمنفعة، ومن ثم رفضت أي فعل لا يحقق لصاحبه نفعًا أو لذة أو أي فعل يجلب الألم، فكان المعيار الأخلاقي هو النفعية التجريبية، كما كان الإلزام أيضًا هو النفعية التجريبية. وأمام هذا لم يكن أمامه بد من الدفاع عن القانون الأخلاقي الذي يؤمن به، ذلك القانون الذي قوامه عقل وشرع، فراح ينقد في حزم وأناة معًا تلك الوضعية التي جعلت البشرية في صراع مع النفس وصراع مع الناس.

([51]) انظر المرجع السابق، ص 8، 9.

([52]) انظر الإسلام والوضعية والاستشراق في عصر الأيدولوجية، ط دار نهضة مصر، القاهرة، 2007.

ولم يكن الاستشراق بأسعد حالاً من الوضعية عند الخشت، فراح يبين المبادئ التي يقوم عليها الاستشراق، وهي – في الحق – المبادئ التي يقوم عليها كل اتجاه تعصبي يغلف نفسه بغلاف علمي، فهو اتجاه في ظاهره العلم، وفي باطنه من قبله التعصب، ومن ثم فقد فطن الخشت إلى أن الاستشراق يمثل أيديولوجية في عصر زادت فيه حدت التكتلات على نحو يشعل صراعًا عالميًا. نعم إن الدكتور الخشت كان ينظر للاستشراق على أنه يمثل مخططًا للاستيلاء على مقدرات الشرق بخيراته وإمكاناته وموقعه، إلا أنه كان يرى أن هناك بعض الدراسات الاستشراقية التي كانت إضافة إلى المكتبة العربية.

ويظهر المنهج الديني الوسطي أكثر ما يكون وضوحاً في أثناء مقارنته بين الأفغاني ورينان في مسألتي العلم والدين، حيث تبدو الروح العقدية لديه متوهجة تدل بوضوح على صدق العاطفة التي تملي عليه ذلك، فقد رد بروحه الوسطية على تلك الافتراءات التي حاولت أقلام إلصاقها بالدين، تلك الافتراءات التي تزعم بأنه دين لا يأبه بالعلم، فذهب إلى إظهار الوجه المشرق للإسلام من خلال نقد رينان بآراء الأفغاني، وزاد عليه إظهار منهج الأفغاني نفسه في محاربة الإلحاد ونقده في مختلف عصوره. كما تظهر الوسطية في دراستيه: "الدليل الفقهي"[53]، و "الأخلاق وأسس التقدم"[54]؛ حيث بيّن في الأخيرة أن النهضة لا تقوم بدءاً إلا على أساس الدين والفهم الصحيح للعقيدة. فالدين في نظر الأفغاني هو أساس الإصلاح والنهوض الحضاري[55]، ومن ثم حاول تحريره والعقل من الخرافات

([53]) ط القاهرة، مكتبة ابن سينا، 1985م.

([54]) ط القاهرة، هيئة قصور الثقافة، 2004م.

([55]) انظر محمود قاسم، جمال الدين الأفغاني حياته وفلسفته، القاهرة، ط الإنجلو المصرية، بدون، ص 6، 7.

(ISSN : 2536 - 9555)

والأوهام، مع توجيه الشعوب أخلاقيًا[56]. ويعد موقفه من السينما وحرية الإبداع دليلاً على وسطيته التنويرية المعتدلة فقد كنا– وهذا ما يرفضه الخشت– إزاء موقفين متطرفين من الفن عمومًا والسينما خاصةً: موقف فوضوي متسيب، وموقف متشدد محرم. وكلاهما يعبر عن وجهة نظر ضيقة الأفق، وعقل مغلق؛ فالعقل المغلق ليس سمة للمتشددين في الدين فقط، بل سمة أيضا للفوضويين الذين يريدون أن يفرضوا رؤيتهم للحياة على الجميع دون مسئولية ودون شعور بالتزام تجاه المجتمع[57].

وبقدر رفضه التطرف في التشدد والتحريم، كان رفضه الإفراط في الإباحية والتحلل من مصفوفة القيم الإنسانية. ولذا لا يعير أي اهتمام للذين يرفعون سقف الحرية إلى درجة الفوضى بحجة إبداع مزعوم ينشرون من خلاله مفاهيم متدنية، وسلوكيات الغواني، وقيم البلطجية، التي تنحطّ بالمجتمع إلى درك حيواني رخيص يطيح بقيم الرجولة والشهامة ويتعامل مع المرأة كسلعة جنسية رخيصة لا تغدو أن تكون أداة لإشباع الرغبات! مثلما لا يعير أي اهتمام لأولئك الذين يحرمون "السينما النظيفة"؛ لأنها مجرد أداة للبهجة البريئة أو لنقل إيقاع الحياة أو لتوصيل رسالة أو للتعبير عن تجربة إنسانية. ومادامت محكومة عنده بالقيم الإنسانية وتسير في ظلال مبدأ "الفن للمجتمع" فلا يمكن القول بتحريمها، فالسينما عند

([56]) انظر مونيس بوخضرة، محمد عثمان الخشت فيلسوف الترحال والتأويل والجرأة، دراسة بكتاب عقلانية بلا ضفاف، ص 51.

([57]) د. الخشت، نحو تأسيس عصر ديني جديد، ص 187، وانظر له أيضًا الإسلام والسينما وحرية الإبداع (3/3)، الوطن، بوابة الوطن، 2014/5/18م.
http://www.elwatannews.com/news/details/484641

الخشت هي عمل إبداعي يضاف إلى مصفوفة الحضارة، وشكل من أشكال التعبير الفني الجمالي عن العالم الإنساني من منظور خاص[58].

إن الخشت هنا يستند إلى قاعدة فقهية مؤداها أن الأصل في الأشياء الإباحة إلا إذا أتى ما يدل على تحريم ذلك الشيء، وهي القاعدة التي كان يراها حاكمة في الحلال والحرام. ولذلك كان يتعجب من فعل المتشددين الذين يزايدون على الدين، والذين كان تفكيرهم محكوما بقاعدة أخرى تناقض القواعد الأصولية، هي "الأصل في الأشياء التحريم"!.

إن التصور الإسلامي في أصله النقي يسع عند الخشت كل ألوان الإبداع الإنساني طالما لا تضر بالمجتمع. لكن كان مؤمنًا بأنه عندما ينحرف الفن ليعبر عن رسالة ضارة تؤثر في سلوك الناس وتدفعهم لأي لون من ألوان الشر، فإنه هنا يجب التوقف ويجب التوقيف. وليس معنى هذا أن السينما محظور عليها التعبير عن الشر عنده؛ لأن التعبير عن الشر إذا كان من أجل توصيل رسالة إنسانية تتخاصم مع الشر؛ فإنه يكون بلا شك عملا نبيلا. أما إذا كان تصوير الشر يهدف إلى نقل حالة من العدوى للمجتمع فإنه يصبح خطأ فادحا في حق المجتمع. "إن السينما مجرد وسيلة حاملة، والوسيلة في حد ذاتها ليست حراما أو حلالا؛ مثل الكوب يمكن أن يكون حاملا لخمر أو لماء، ومثل الكهرباء يمكن تستخدمها كوسيلة للصعق أو القتل بغير حق، ويمكن أن تكون وسيلة للإضاءة أو الطاقة النافعة. فالسينما قد تحمل مشاهد رديئة تجعلك تتأثر بأسوأ ما فيها، أو تحمل مشاهد إنسانية رائعة تدخلك في عمق الحياة[59].

([58]) الخشت، المصدر نفسه.

([59]) الخشت، المصدر نفسه، ص 188.

(ISSN : 2536 - 9555)

ولذا فالسينما شأنها عند الخشت شأن كل شيء "حلالها حلال وحرامها حرام". مستدلاً في ذلك برد القرآن الصريح على الذين يميلون لتحريم أي شيء دون دليل قاطع: (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ) (الأعراف: 32). وبالرد على الذين يصدرون عدوى الأفعال المشينة إلى المجتمع، (قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) (الأعراف: 33).

إن الخشت كان مؤمنًا إيمانًا لا شك فيه بأن الرؤية الإسلامية التي تقيد الفن بمعايير الحق والخير والجمال، لا تعني عدم السماح بالاختلاف السياسي، ولا تعني عدم السماح بالتنوع والتعددية الفكرية والاجتماعية، ولا تعني عدم نقد المجتمع وتطويره، بل تعني لديه عدم تجاوز السقف الأخلاقي العام وعدم تصدير نماذج الشر إلى المجتمع. وفي هذا يتفق مع تلك النظرية في فلسفة الفن التي تقول إن "الفن ليس للفن بل للمجتمع". أما الحديث عن حيادية الفن، وأنه خارج أُطر ما هو أخلاقي أو غير أخلاقي، فقد كان يعتبره وهمًا كبيرًا؛ لأن قيم الجمال غير منعزلة عن قيم الحق والخير، أو هكذا ينبغي أن تكون[60].

وفي هذا الإطار تبدو الرؤية الإسلامية الوسطية التي يقدمها الخشت تجعل الفن للمجتمع، ومن ثم تربطه بالخير، وعليه فإنها ليست بمعزل عن تيار قوي في فلسفة الفن نشأ وترعرع في إطار الفكر الغربي. "ومن هنا فإن الحديث عن فوضى الإبداع بلا حدود، إنما هو نوع من الانفلات يروج له أنصار الإثارة من أجل زيادة المكسب المادي وارتفاع حصيلة بيع التذاكر، فعندما تضعف اللغة الفنية، تكون الإثارة هي البديل لجذب جمهور مكبوت"[61]. ومن ثم تعبر آراء الخشت عن دعوة

([60]) الخشت، المصدر نفسه، 188، 189.

([61]) الخشت، السابق، ص 190.

صريحة للشك المنهجي في المتوارث من الأفكار، واضعًا نصب عينيه ما حذر منه الفيلسوف الإنجليزي فرنسيس بيكون عندما ذم الذين يتبعون زعماءهم مثلما يتبع القطيع الراعي! وأطلق بيكون على آراء أمثال هولاء اسم "أوهام المسرح"، وهى الأوهام التي تنشأ عن الاعتقاد فى صحة كل ما يقوله قادة الجماعات أو الآباء أو الشيوخ أو غيرهم من أصحاب النفوذ؛ حيث يعتقد بعض الناس أن كلامهم كله صحيح لمجرد أنه صدر عن فقيه كبير من الفقهاء أو قائد جماعة دينية أو سياسية من ذوى الأسماء الكبيرة[62].

ومن ثم انتقد الخشت النظرة إلى الإسلام من زاوية واحدة وضيقة، وهي زاوية القراءة الضيقة والحرفية لنصوص الكتاب وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، والأخذ ببعض الكِتاب وترك البعض الآخر، والغفلة عن روح الإسلام وأدلته الكلية. وقد ضرب مثلاً على ذلك بالعميان "الذين دخلوا غرفة مظلمة فيها "فيل عملاق"، ووضع بعضهم أيديهم على ذيله، وظنوا بل اعتقدوا أن "الفيل كله" عبارة عن "ذيل"، بينما فريق آخر وضعوا أيديهم على "رجل" الفيل وتصوروا الفيل كأنه عمود طويل مستدير، أما الذين وضعوا أيديهم على "ظهر" الفيل فتصوروا أنه هضبة عالية، والذين وضعوا أيديهم على "أنيابه" ظنوا أنه كائن شرس فتاك! وهكذا الحال مع سائر الأجزاء... ثم دخل الجميع في جدال مميت حول ما هو الفيل، وأخذ كل فريق يصف الفيل "كله" بمواصفات هذا "الجزء" الذي يمسك به والذي يعلمه علم اليقين! وعمى بعض المسلمين في عصرنا ليس عمى عين وإنما عمى ثقافة، وعمي الزاوية الواحدة التي ينظرون منها، وهي زاوية الموروثات الاجتماعية وزاوية المصدر الواحد للمعرفة؛ فهم يخلطون بين موروثاتهم

([62]) الخشت، نحو تأسيس عصر ديني جديد، ص 65، 66، وانظر له أيضًا، القرآن وغريزة القطيع، بوابة الوطن، 2013/7/20م.
http://www.elwatannews.com/news/details/228097

(ISSN : 2536 - 9555)

الاجتماعية والتصور الإسلامي النقي والشامل. ولذا تجدهم يعتقدون أنهم يحتكرون الفهم الصحيح والأوحد للإسلام، ويبدون تعصبهم مع المختلفين معهم[63].

ومن ثم فإن الخشت ليؤكد مجددا على أن الإسلام هو الإسلام وليس المسلمين، هو القرآن والسنة الصحيحة فقط. وقد اكتمل الدين في اللحظة التي أعلن فيها القرآن هذا، وبالتالي فكل ما زاد عن ذلك مجرد اجتهاد بشري يصيب ويخطئ. والإسلام الحر عند الخشت ليس إسلاما آخر، وإنما الإسلام نفسه في طبعته الأولى الأصلية دون أقنعة أو تلوين سياسي أو اجتماعي من أجل مصالح فئوية. إنه عودة لمنابع النهر الصافية: القرآن والسنة الصحيحة[64].

ولذا كان يعمل على تحرير التصور الأصل من الشوائب المشوهة التي لحقت به سواء من البدع في مجال العبادات أو الابتداع في مجال السياسة؛ حتى يبرأ الأصل من شبهات الصور المزيفة له، ويعود هذا الأصل إلى جذره "الحر" في أصوله الأولى النقية: القرآن والسنة الصحيحة. وبداية تحرير المفهوم تكون عنده باللغة، لكنها ليست اللغة في عالمها الضيق الحرفي، بل اللغة في فضائها الحر، واللغة في هذا الفضاء هي صورة الفكر؛ فالفكر هو الذي يصنع اللغة، فهي

([63]) الخشت، نحو تأسيس عصر ديني جديد، ص 68، وانظر الخشت، الرؤية الأحادية للإسلام، بوابة الوطن 2013/10/12م.

http://www.elwatannews.com/news/details/339673

([64]) الخشت، نحو تأسيس عصر ديني جديد، ص 154، وانظر الخشت، الإسلام الحر, العودة إلى المنابع، بوابة الوطن، 2013/10/26م.

http://www.elwatannews.com/news/details/346095

صورته وليست أصله، على عكس بعض تيارات التعصب والانغلاق التي تفكر حسب حرفية اللغة فتقع في التشدد، حيث يصبح المعنى أسير الحرف! [65].

فصفة "حر" كما يراها ليس معناها هنا "الحرية" فقط كما قد يتوارد إلى الذهن، وأيضا "الحر" ليس مرادفا لـ"الليبرالي" في معناه الغربي الضيق. وإنما كان يرى "الحر" هنا وصفًا للإسلام بسمة جوهرية فيه، ومعناه متعدد الدلالات؛ فالحر هو "الخالص من الشوائب" مثلما نقول "ذهب حر أو ماس حر"، أي نقي خالص لا يشُوبُهُ مَعْدِنٌ آخَرُ. وهذا هو إسلام القرآن والسنة قبل الصراع على السلطة، وقبل نشوء الفرق؛ فمن المعروف أن بداية ظهور الفرق في تاريخ المسلمين كانت بسبب الاقتتال على الخلافة. والحر أيضا هو "الأصيل"، يقال "فَرسٌ حُرٌّ أي عتيقُ الأَصْل". وبهذا المعنى، فإننا نريد الرجوع بالإسلام إلى أصالته قبل أن يلونه البعض بمواقفه السياسية ومصالحه الدنيوية من أجل السلطة أو الثروة أو الهيمنة الاجتماعية أو العلو في الأرض. والحُرُّ هو "الكريم والشهم"، مثلما نقول "رجل حر"، والإسلام في أصالته هو الإسلام الكريم والشهم، ولا معنى للكرم والشهامة دون إكرام الآخر والدفاع عنه وحمايته، أيا كان الآخر [66].

وتكشف كتابات الدكتور الخشت– خاصة في ثلاثة منها– عن دعوة فقهية تنويرية إصلاحية ثائرة بدرجة كبيرة جداً، غير أن دعوته الفقهية كانت لا تنفك بحال من الأحوال عن عقله ومنهجه، فقد حمل الخشت معه العقل أينما حل، وحيث رحل، فلم يقدم عقله فريسة لاعتبارات شخصية أو مذهبية.

([65]) الخشت، نحو تأسيس عصر ديني جديد، ص 154،155، وانظر الخشت، الإسلام الحر, العودة إلى المنابع، بوابة الوطن، 2013/10/26م.
http://www.elwatannews.com/news/details/346095

([66]) الخشت، نحو تأسيس عصر ديني جديد، ص 156، 157، وانظر الخشت، الإسلام الحر, العودة إلى المنابع.

(ISSN : 2536 - 9555)

ومما دفع الخشت إلى التأليف الفقهي ما وجدنه في الكتب التقليدية التي تناولت تلك العلوم– خاصة علوم الحديث– من صعوبات وتعقيدات، تجعل استيعاب بل مجرد فهم العلوم المعنية للطلاب أمرًا من العسر بمكان؛ لما تنطوي عليه من جفاف في الأسلوب وغموض في التعبير، فضلاً عن كثرة التفريعات وعدم الترتيب المنطقي في كثير من الأحيان والإكثار من إيراد الاختلافات والأقوال المتعارضة التي يحتار معها القارئ العادي الذي لا يدري ماذا يأخذ وماذا يدع[67].

لقد أراد الدكتور الخشت فقهية تنويرية تقوم على القضاء على الاستبداد في الحكم، والقضاء على الاستبداد في الرأي، مع الاستناد إلى مراعاة الظروف والمتغيرات التي طرأت على عصرنا والقضايا وثيقة الصلة بالعصر، والتي تعتبر من المستحدثات التي طرأت على الساحة الفقهية، وفي حاجة إلى ردود شافية تمنع الناس من التخبط، كل ذلك في إطار التمسك بأصول الدين الحنيف، وهي تلك الدعوة الفقهية التي اصطدمت بما هو عليه واقع المسلمين من: ضعف الأخلاق وانتشار الرذيلة والاختلاف والشقاق بينهم، والتخلي عن مبادئ الإسلام الخاصة بالنظر الفكري والأخذ بأسباب العلم النافع أياً كان مصدره، كذلك اصطدم بما وجد عليه المسلمين من أمراض نفسية تتمثل في اليأس والجبن والتواكل وغيرها من الصفات.

فثار الدكتور الخشت حيث يكون السكوت ذلة وانكساراً ونهض حيث يكون القعود خوراً وجبناً، فأبى إلا أن يشارك في توعية الأمة المسلمة بقضايا فقهية لا غنى لأحد عنها، فرسم طريقاً فقهيًا فيه من خطا السابقين الكثير، فأرادها صحوة

(67) الخشت، مفاتيح علوم الحديث وطرق تخريجه، ص 1.

قائمة على مبدأين أساسيين: صحوة قائمة على الدين، وصحوة قائمة على نظام سياسي عادل، فهي نهضة دينية سياسية.

لقد أرادها ثورة على عهد التخلف والرجعية وعلى رموزها الذين رسخوا في عقول الشعب أسس هذا التخلف وهذه الرجعية، وكأن دعوته كانت موجهة إلى تلك الشعوب المسلمة المحتلة كي تصحو من سباتها العميق، وكأنها كانت أيضاً موجهة إلى تلك الشعوب المسلمة التي نالت حظها من الاستقلال بأن تخشى من الوقوع فيما وقع فيه المستبد الخارجي؛ لأن معنى وقوعها فيه استبدال مستبد بمستبد آخر. وخير مثال على النوع الأول من الدعوة دراسة الخشت: الأخلاق وأساس التقدم وقدم لنا الخشت في باب الفقه مجموعة من الكتب القيمة في الموضوع والمنهج، نذكر منها:

- الدليل الفقهي.
- المشاكل الزوجية وحلولها في ضوء الكتاب والسنة والمعارف الحديثة
- المرأة المثالية في أعين الرجال.
- فتاوى المرأة المسلمة في العبادات والمعاملات.
- مفاتيح علوم الحديث وطرق تخريجه.
- وليس الذكر كالأنثى دراسة من منظور الإسلام والعلوم الحديثة.
- كتاب الصلاة.
- كتاب فهم الصلاة.

وهي كتب يظهر فيها الميل الشديد الاهتمام بالإنسان المسلم من حيث كيفية معالجته لمشاكله واحتياجاته الدينية والعقدية والعبادة والمعاملات، بل إن هذه المؤلفات تظهر اهتمامًا شديدًا بالمرأة المسلمة؛ حيث تعمق الخشت في البحور الفقهية بهدف تكوين رأي شامل حول مكانة المرأة في الإسلام من حيث التكريم والحقوق والواجبات، وتعد آراء الخشت الفقهية – خاصة ما يتعلق منها بالمرأة –

(ISSN : 2536 - 9555)

صيحة تنوير ضد كل الآراء المتطرفة، وضد كل التفسيرات المشبوهة الممتزجة بالمصالح والمداهنات.

ثالثًا: **نقد الفلسفة الغربية**:

كما تظهر من خلال مؤلفات الدكتور الخشت نقدًا صريحًا للفلسفة الغربية، ولا يحمل معنى النقد عنده التركيز على أوجه القصور والسلبيات فقط، بل كان يحمل إلى جانب ذلك التأكيد على مواطن القوة والإشادة بها، فكان نقده بذلك نقدًا موضوعيًا يلتمس مواطن القوة من خلال الأفكار البناءة التي تسهم في إعلاء صرح الفلسفة الحديثة على كافة المستويات.

ومن ثم فقد كتب كتابه القيم: المعقول واللامعقول في الأديان فلسفة الدين بين العقلانية النقدية والعقلانية المنحازة، وهي الدراسة التي تنقد البناء الفلسفي الغربي من داخله من خلال الاستناد إلى النصوص الواضحة لعلمين من أعلام الفلسفة الغربية، ومن ثم فقد أقام الخشت دراسته على أساس من التحليل المقارن المتعمق للأديان في تقاطعها مع الميتافيزيقا بحثًا عن فلسفة عقلية للدين، بهدف التأكيد على أن المادة وحدها غير كافية في تفسير الوجود. ففي الوقت الذي يشعر فيه الإنسان بأن المادة غير كافية لتفسير الوجود– عند الخشت– هو الوقت الذي يكون فيه على أعتاب الإيمان، إذ لم يكن الخشت يكتفي– في سبيل سعيه المعرفي– بالمتناهي، وإنما كان يسعى نحو اللامتناهي متجاوزًا تمامًا التفسيرات المادية للكون محاولاً التماس مجال معرفة يقدم تفسيرًا له عن الله والعالم والإنسان، ومن الصحيح أنه وجد هذا المجال المعرفي في الدين والميتافيزيقا، وهذا يفسر لنا لماذا كانت أغلب مقارنات الخشت– إن لم يكن كلها– تتجه إلى صنع علاقة قوية بين الدين والميتافيزيقا، وتوجيه النقد اللاذع لكل من يحاول الفصل بينهما من أعلام الفلسفة خاصة الغربية؟

كذلك كانت دراسته عن هيوم وكانط في كتابه العقل وما بعد الطبيعة تأويل جديد لفلسفتي كانط وهيوم، تعطي قراءة نقدية جديدة للفكر الكانطي والفكر الهيومي، وهي قراءة تأويلية جديدة لا تقرأ كانط بكانط وهيوم بهيوم، وإنما تقرأ كانط بهيوم وهيوم بكانط وحقًا ما قاله الدكتور حسن حنفي عن هذه الدراسة؛ إذ وجدها تتضمن رأيًا معلنًا بجرأة ووضوح، هيوم قابع داخل كانط وكانط قابع داخل هيوم،، وأن المسافة بينهما عند الخشت ليس كما هو شائع كبيرة إلى حد التناقض، بل هي عند الخشت قريبة إلى حد التكامل إن لم يكن التماثل،، كانط عقلي وهيوم حسي، بل لقد رأى الدكتور حسن حنفي ما هو أكثر من هذا، إذ رأى وكأن روح الفارابي تعود من جديد– في كتاب الجمع بين رأيي الحكيمين: أفلاطون وأرسطو– في محمد عثمان الخشت في الجمع بين الحكيمين: كانط وهيوم، وكأنه سائر إلى مصالحة ثانية من وجهة نظره بين السلفية في صورة كانط والعلمانية في صورة هيوم حقنًا للدماء بين الأخوة الأعداء في عصرنا الراهن[68].

ومن ثم فقد انتهى من هذه الدراسة أن الاعتقاد بأن علاقة هيوم بكانط هي علاقة سائل بمجيب اعتقاد خاطئ؛ لأنه ينبني على أساس أن فلسفة هيوم فلسفة سؤال، وفلسفة كانط فلسفة إجابة، وإنما الصحيح لديه أن فلسفة هيوم هي فلسفة سؤال وجواب معًا، وأن كانط لم يتجاوز هيوم؛ لأن فلسفته لم تكن إجابة على أشكال هيوم، وإنما كانت عند الخشت تعميقًا ترنسندنتاليًا ليس فقط للمشاكل والأسئلة التي أثارها هيوم، وإنما أيضًا لنتائجه وحدسه الفلسفي.ومن ثم فقد انتهى أيضًا إلى أن كانط في فلسفته المعرفية والميتافيزيقية ومعظم المبادئ التي استند إليها في تحليلاته، وأغلب المشاكل الفلسفية التي أثارها إنما هي نتائج ومبادئ

(68) انظر العقل وما بعد الطبيعة بين فلسفتي هيوم وكانط، بيروت، ط دار التنوير 2005م، ص3.

(ISSN : 2536 - 9555)

ومشكلات ديفيد هيوم، ولكن مع شيء جديد من التعمق المبدع والتحليل العبقري على الطريقة الألمانية[69].

ومن ثم فإن هذه الدراسة تحمل رؤية جديدة لتاريخ الفلسفة الغربية تتجاوز الصراع التقليدي منذ بداية العصور الحديثة بين العقلانية والحسية، والمثالية والواقعية، والصورية والمادية[70]. لتنتهي هذه الدراسة إلى أن هيوم لم يكن محطمًا للميتافيزيقا، وأنه كان ممن قالوا بالميتافيزيقا العلمية[71].

غير أن الخشت وهو في سبيل نقد الفلسفة الغربية لم يقلل مطلقًا من أهمية جهود السابقين ممن قامت دراستهم على العرض والتحليل، بل على العكس من ذلك كان يؤمن بأنها كانت ضرورية ومهمة في الفترة السابقة من نهضتنا الفكرية المعاصرة، حيث كانت الحاجة– ولاتزال– ملحة للتعرف على هؤلاء الفلاسفة على ما هم عليه دون تأويل أو تفسير، غير أنه كان يرى أيضًا أنه آن الأوان لكي يكون هناك لون من الدراسات التي لا تكتفي بالوقوف على العرض والتقديم، بل تحاول تقديم قراءات متعددة ومتنوعة لهؤلاء الفلاسفة.

ومن مؤلفاته التي تصب في اتجاه نقد الفلسفة الغربية كتاب فلسفة العقائد المسيحية، قراءة نقدية في لاهوت ليبنتز. فإذا كان الخشت يرى أن المسيحية قد واجهت دومًا تحديات كبرى– وقد كانت موجة النقد العقلانية التي تعرضت لها في القرن السابع عشر واحدة من تلك التحديات الكبرى التي قابلتها في تاريخها الطويل– فإنها لا تقل في خطورتها وقدرتها على التهديد في الوجود عن موجات العنف التي تعرضت لها في بداياتها، بل لقد كان يرى أن المسيحية واجهت دومًا

([69]) انظر العقل وما بعد الطبيعة، ص 242.

([70]) د. حسن حنفي، تقديم كتاب العقل وما بعد الطبيعة، ص 4.

([71]) انظر: سعيد علي عبيد، الخشت وتأويل جديد لميتافيزيقا هيوم، كتاب عقلانية بلا ضفاف، ص 253.

في كل تحد من هذه التحديات من يدافع عنها، ويأخذ بيدها كي تستمر في الوجود، وكان ليبنتز من أولئك النفر الذين عملوا بجدية للدفاع عن المسيحية بما يجعلها قادرة على مواجهة موجة النقد العقلانية التي كانت علامة فارقة من علامات عصر العقل عصر القرن السابع عشر الميلادي[72].

ونستطيع أن نجد بوضوح نقد الخشت للفلسفة الغربية في دراساته عديدة، منها: فلسفة الدين والميتافيزيقا عند هيوم، وفلسفة العقائد المسيحية، وأقنعة ديكارت العقلانية تتساقط، والفلسفة الحديثة، وغيرها من الدراسات.

رابعاً: التوظيف العقلي للدين:

كان من الأسس المهمة التي ارتآها الخشت لبناء اتجاهه الفكري التوظيف العقلي للدين، وهذا ما حرص عليه في نقده للعقلانية النقدية عند كانط والعقلانية المنحازة عند هيجل، فقد حرص الخشت على عدم الاكتفاء بالتركيز على بناء فلسفة الدين واكتمالها في العقلانية النقدية عند كانط في كتابه: الدين في حدود العقل فقط كما لم يحرص على عدم الاكتفاء بالتركيز على بناء فلسفة الدين واكتمالها في العقلانية المنحازة عند هيجل على كتابه: محاضرات في فلسفة الدين، بل عمل على تتبع مراحل التفكير الديني عند كانط وهيجل، في كل فترة من فترات تشكلهما الفلسفي، فترة الشباب، وفترة النضج المذهبي، وفترة اكتمال بنية فلسفة الدين، ومن ثم فقد كانت جهود الخشت تنصب على محاولة الكشف عن دور الدين في تشكيل المذهب الفلسفي، ودور الفلسفة في تكوين التصور الديني عند كل منهما، ومن ثم فقد كانت جهوده في قراءة كانط لا تفرق بين كتب كانط من حيث ما هو ديني، وما هو فلسفي، مما يمكننا من القول إن الرعاية والاهتمام اللذين أولاهما الخشت لكتب كانط قبل النقدية من منظور الفكر الديني

([72]) فلسفة العقائد المسيحية، قراءة نقدية في لاهوت ليبنتز، ص 7.

(ISSN : 2536 - 9555)

كانا كبيرين، ومن ثم فإن دراسته للأعمال الكانطية قبل النقدية يعد عملاً جريئًا يتسم بالمجازفة، ولكنها المجازفة المحسوب نتائجها بدقة، ولم يتخذ الخشت ذلك الاتجاه، إلا لأنه وجد أن هذه الأعمال لم تلق الاهتمام الكافي في الدراسات العربية والأجنبية[73].

وإذا كان الخشت قد قصد إلى توظيف عقلي لفلسفة الدين عند كانط وهيوم، فإن مقصده لم يكن مبنيًا على عرض الآراء والأفكار هنا وهناك، وإنما سعي بكل جدية والتزام لتقديم تأويل لها في ضوء المقصد العام للمذهب الفلسفي.وهذا يفسر لنا لماذا ركز الخشت جهوده على سائر أعمال كانط النقدية وغير النقدية، وأولاها الأهمية نفسها التي أولاها لكتاب الدين في حدود العقل فقط في فهم الفكر الديني عند كانط، كمرحلة على معالم التوظيف العقلي لفلسفة الدين، والخشت بهذا قد ولج طريقًا غير مألوف ومخالفًا لمن درس فلسفة الدين عند كانط؛ لاعتمادهم على كتابه سالف الذكر وتركيزهم عليه. أما هيجل فقد كان الخشت يرى أن فلسفة الدين عنده لم تحظ بدراسة عربية حتى الآن ناقدًا الدراسات الأجنبية التي دارت حول فلسفة الدين عنده لاعتبارات منهجية؛ إذ إن هذه الدراسات على الرغم من كثرتها فقد اكتفت بالتعويل على طبعة 1831م لكتاب محاضرات في فلسفة الدين، بينما عول الخشت بالدرجة الأولى على محاضرات 1827م؛ باعتبارها في نظره أكثر محاضراته اكتمالاً وثراءً وحيوية، مع المقارنة بمحاضرات هيجل 1824م، 1831م، بالإضافة إلى المخطوطة الأولية التي كتبها هيجل، وتكتسب محاضرات 1827م أهميتها عند الخشت ليس فقط من منطلق المضمون الثري والأفكار الحيوية والصانعة، وإنما كذلك من التقسيم البنيوي الأكثر اكتمالاً وتفصيلاً من المخطوطة ومحاضرات الأعوام الأخرى التالية.

([73]) انظر الخشت، المعقول واللامعقول في الأديان، ص 11.

وفي كتاب العقائد الكبرى قدم لنا الخشت تصورًا عقليًا للدين من حيث هو دين، فلم يرض بالتيار الديني المتطرف، فضلاً عن عدمه رضائه بالطبع عن التيار العلماني الإلحادي المتطرف، وقد كان التوظيف العقلي للدين عند الخشت يقوم على أساس افتراض تيار ثالث وهو العقلانية الروحية، فالعقلانية الروحية عند الخشت حل ينظر للعالم نظرة عليمة وفق منطق السببية، وفي الوقت ذاته يعي الإنسان أن العالم الحالي غير كاف بذاته، ومن ثم فلن يكون له معنى دون أن يبحث الإنسان عن نقطة ارتكاز قصوى تقدم له المعنى الذي يحياه، وما هذه النقطة الارتكازية القصوى سوى الله تعالى، فدعوة الخشت هنا تقوم على أن الله تعالى وضع قوانينه في الطبيعة، كما جعل لكل شيء سببًا، ومن ثم فإن منهجية التعامل مع الطبيعة والعالم والمجتمع ينبغي أن تكون منهجية علمية سببية، تنأى بنفسها عن الخرافة والأسطورة والحلول الوهمية[74].

غير أن هذا الحل لا يمكن الوصول إليه دون دراسة متعمقة للأديان بحثًا عن فلسفة عقلية للدين، بغية البحث عن الحقيقي والدائم على أساس موضوعي غير منحاز، حيث إنه من المؤكد عنده أن كل دين قد وصل إلى جزء من الحقيقة، ومن ثم آل على نفسه– وموجهًا أيضًا لجمهور القراء– محاولة اكتشاف هذا الجزء وسط ركام التحولات التاريخية والأوهام الخرافية، بحثًا عن الدين المطلق الذي جمع بين طياته كل التصورات الجزئية للحقيقة في تصور أشمل، وهو الدين الإسلامي[75].

لقد أعاد الخشت التفكير العقلاني الحر في الدين من حيث هو دين، كما قام بتحليل نقدي لماهية الدين وطبيعة العلاقة بين الدين والفلسفة، وبين العقل والنقل،

([74]) انظر العقائد الكبرى بين حيرة الفلاسفة ويقين الأنبياء دمشق، ط دار الكتاب العربي، 2010م، ص 5، 6.

([75]) انظر السابق، ص 6.

(ISSN : 2536 - 9555)

ومعرفة موقف الأديان العالمية من الألوهية، والوحي والنبوات والمعجزات، وماهية العبادات ووظائفها، ومشكلة الشر، والحياة الآخرة . ومنطق تطور الأديان، وفحص الأديان في ضوء العقل وحده من خلال تحليل ومقارنة العقائد الكبرى في العالم.

وللدكتور الخشت العديد من الدراسات في مقارنة الأديان، وهي كتب أساسية في مجالها، ذات إفادة جمة للمتخصصين والمثقفين والباحثين عن المعرفة والإيمان الحق القائم على اقتناعات عقلية منطقية، ومن هذه الكتب:

- العقائد الكبرى بين حيرة الفلاسفة ويقين الأنبياء.
- تطور الأديان قصة البحث عن الإله.
- الفيدية.. البراهمانية.. الهندوسية.
- الإله والإنسان إشكالية التشابه والاختلاف في فلسفة برايتمان.

ومن ثم فقد اتجه في هذه المقارنات إلى الكشف عن مفهوم الأديان وميادين دراستها، علاقة الأديان بالفلسفة، الميتافيزيقا والدين، منبع الأديان وتطورها، الأديان الطبيعية، الديانات التشبيهية، الأديان المتعالية، الإيمان والإلحاد، تصورات الفلاسفة للألوهية، الروح بين دوجما الأديان وحيرة الفلاسفة، الشيطان ومشكلة الشر في العالم، الوحي والنبوة في الأديان الطبيعية والتشبيهية، الوحي والنبوة في الأديان المتعالية، المعجزات بين الإعجاز الحسي وإعجاز البيان والبرهان، فلسفة العبادات الماهية والوظيفة. ثم تحدث تفصيلاً عن الديانة الفيدية من حيث ملامحها والكتب المقدسة فيها، ومجمع آلهة الفيدا، وعن الديانة البراهمانية من حيث ملامحها وكتبها المقدسة، وعن الديانة الهندوسية من حيث أركانها وكتبها المقدسة، ومجمع آلهة الهندوسية، وبعض الفرق والمذاهب الهندوسية الأخرى.

وهي الدراسات التي حاول الخشت من خلالها تقديم حل شاف عن ماهية الدين من حيث هو دين، وهي الإشكالية التي حاول الإجابة عليها من خلال العديد من المؤلفات التي تتناول الأديان دون تمييز جغرافي أو تاريخي أو موضوعي، وفي سبيل ذلك اتبع منهجًا علميًا صرفًا صارمًا، لا يقتفي معالم المنهج المقارن بمعناه الضيق التقليدي القائم على أساس علاقتي التشابه والاختلاف فقط، وإنما المنهج المقارن الذي يبحث– فضلاً عن هذا– عن التلاقح والأثر والتأثر والتوالد والتطور والانتكاس والامتزاج والتضمن والهيمنة والنسخ والديالكتيك والتمييز بين المتغيرات والثوابت في الأديان السلبي منها والإيجابي بين العقلانية والأسطورة وبين الوحي والواقع وبين الوهم والحقيقة وبين المنطقي والخرافي، فضلاً عن توظيف الخشت للمنهج النقدي التاريخي واستحضار نتائجه ومنجزاته، وفي هذا الإطار استدعى كثيرًا من آراء الفلاسفة في كل العصور– خاصة الحديثة– حول الدين[76].

خامساً: المساهمة في بناء علمي منهجي:

وتلك صفة جوهرية تظهر لنا من مؤلفات الدكتور الخشت أو على الأدق من ضمن ثلاثة مؤلفات تبغي الارتقاء بالبحث العلمي، وهو "مناهج البحث". وهو المؤلف الذي أراد به الخشت تقديم المناهج العلمية الحديثة في البحث [77]، بعيدًا عن الحديث عن المنطق القديم الذي ابتكره أرسطو الذي كان ملائماً لتلك الفترة التاريخية التي عاش فيها، منذ بدء ظهوره، بل قبل ظهوره على يد أرسطو إلى مرحلته التي وصل إليها في عصره، ومن خلال هذه الرحلة التاريخية، ظهر مواطن الضعف في المنطق القديم، فهو عقيم وشكلي ولا يؤدي إلى زيادة معارفنا؛

([76]) انظر الفيدية البراهمانية الهندوسيبة، ط مكتبة ابن سينا، القاهرة، 1996م، ص 6.
([77]) مناهج البحث، ط دار الأمير، بيروت، 2010، انظر المقدمة.

(ISSN : 2536 - 9555)

لأنه مجرد تحصيل حاصل، وابتعد– في وضوح– عن تتبع المراحل المنطقية التي اجتازها المنطق حتى وصل إلى مرحلته النهائية، فلم يعرض لجهود علماء ومفكري العصور الوسطى، بينما رحب بقدوم منهج علمي جديد يأخذ البشرية إلى آفاق من التقدم العلمي والحضاري، ومناهج البحث التي عرض لها الخشت هي الطرق التي يستطيع من خلالها الباحث العلمي الوصول ببحثه وفكره إلى مرحلة الجودة. والحق أن الدكتور الخشت دلل على تلك المنطقية الفائقة من خلال الإلمام العام بموضوع مناهج البحث، وقد كان الخشت يهدف من وراء هذه الدراسة المتعلقة بمناهج البحث إلى التأكيد على الأخذ بالخطوات العلمية في قضايا حياتنا، وأهمها القضايا العلمية، ويمثل هذا الكتاب بجوار كتابين آخرين للخشت هما: كيف تكتب بحثًا علميًا [78]، وفن كتابة البحوث العلمية وإعداد الرسائل الجامعية[79] محاولة من الخشت في إحداث حالة من الرواج العلمي في الوطن العربي من خلال عرض الأسس والخطوات العلمية لكتابة أي بحث علمي أو رسالة جامعية؛ لأنه يجعل الباحث وجهًا لوجه أمام النصوص لينطلق منها بفهم إلى آفاق من المنهجية العلمية، والحق أن هذه الكتب موجهة في النهاية إلى الباحثين الذين يريدون التماس طريق البحث العلمي.

سادساً: بناء الدولة الحديثة:

وللدولة الحديثة عند الخشت ثلاثة روافد رئيسة:

الأول، البناء الديمقراطي الراسخ.

الثاني، المجتمع المدني الحقيقي.

الثالث، المواطنة.

([78]) ط نهضة مصر، القاهرة، 2007.

([79]) ط مكتبة ابن سينا، القاهرة، 1990.

أ- البناء الديمقراطي الراسخ:

لقد ظهرت ديمقراطية الخشت في أسمى معانيها عند حديثه عن المجتمع المدني، وما يجب أن يشكله من نواة أساسية في بناء أي نظام ديمقراطي، تلك الديمقراطية التي تنادي بالشورى في الحكم والثورة على النظام الاستبدادي الفردي، الذي ثبتت أضراره الكثيرة، وينادي بضرورة إفساح المجال للشعب في صنع مستقبله وحياته السياسية هادفًا بذلك إلى توثيق أواصر التعاون بين البلاد سياسياً واقتصادياً وثقافياً؛ بل في المجالات المختلفة، ومن ثم فلقد كان المجتمع المدني عند الدكتور الخشت يمثل ثورة على النظام الطبقي في البلاد العربية، حيث تقسيمها إلى حكام وأعوانهم وإلى طبقات الشعب الكادحين الذين أذلهم الجهل والفقر والجبن من سطوة الحكام المستبدين، لقد أرادها الدكتور الخشت مساواة كما حث عليها الإسلام، مساواة لا فرق فيها بين حاكم ومحكوم، رئيس ومرءوس. وربما يفسر لنا هذا سبب هجومه على الرأسمالية الآنية في مصر والوطن العربي، مؤكدًا على أننا بحاجة إلى "رأسمالية وطنية جديدة"، بحاجة إلى طلعت حرب جديد، لكن هذه المرة لا نحتاج إلى طلعت حرب كزعيم اقتصادي فرد، بل إلى مئات من نموذجه ومن معدنه: يكسبون ويكسب الجميع، لا تلك النماذج الرأسمالية الأنانية التي تريد أن تكسب ويخسر الجميع، تريد أن تغتني وتغتني ويخسر الوطن.[80] وتنتهج هذه الرأسمالية المتوحشة طريق أن تكسب هي ويخسر الآخرون؛ فهي لا يهمها إلا المكسب، ولا يهمها الوطن ولا الناس، وهي تتصور أن السوق أشبه بميدان حرب بينها وبين الجميع، وهي لا همّ لها إلا اصطياد الطرف الآخر وتحقيق الأرباح.[81] ومن ثم فإن الأزمة في بلادنا أكبر من أن

([80]) الخشت، الفقر والرأسمالية المتوحشة.. هذا هو الحل، بوابة الوطن، 2014/6/29م.
http://www.elwatannews.com/news/details/511974

([81]) الخشت، الرأسمالية الوطنية والمصالح المستنيرة، بوابة الوطن 2014/7/6م.

(ISSN : 2536 - 9555)

تكون مجرد أزمة مالية، فهي تتسع لتشمل النواحي البشرية، ولا يقصد الخشت طبعا من الناحية الكمية، فعدد البشر كبير، لكن كثيرا منهم بحاجة إلى إعادة تأهيل تعليمي واجتماعي. نعم دون مبالغة ودون مزايدة ودون اللجوء لأسلوب دغدغة مشاعر الجماهير لأسباب انتخابية[82].

وقد فرق الخشت بين الديمقراطية وتطبيقاتها في العالم المعاصر، فقد كان يرى في العالم المعاصر الذي يرفع شعار الديمقراطية أنه يشتمل على جوانب كثيرة غير ديمقراطية؛ ومن ثم فقد أشهر سيف نقده تجاه هذه الخروقات السياسية، فكان مجملها: الدعاية الممولة من جماعات المصالح التي تملك الأموال والإعلام المنحاز غير المحايد، الذي يضلل الجماهير أثناء فترة الانتخابات. وتملك مجموعات الضغط القوية حتى وإن كانت قليلة العدد تحقيق رغباتها إذا كانت متغلغلة في النظام العام للدولة. وفي الولايات المتحدة الكلمة النهائية ليس للأصوات الناخبة، وإنما "للمجمع الانتخابي، فالمجمع الانتخابي لكل ولاية باستطاعته أن يرفض الشخص الذي انتخبه الشعب. وأعضاء المجمع يعينون للقيام بهذه المهمة ولهم الحق أن يرفضوا الشخص الذي انتخبه الشعب إذا لم يكن "مؤهلا" بحسب تقييم الكليات الانتخابية في الولايات المتحدة. والتعيين يتم تقاسمه (بالأساس) بين أفراد الأحزاب السياسية المسيطرة على الساحة السياسية. وفي بريطانيا تضمن الأحزاب القوية عدم وصول أي أشخاص لا ترغب فيهم إلى منصب رئيس الوزراء. ويفرض قانون الانتخابات الرئاسية في فرنسا على الذين يرشحون أنفسهم الحصول على تزكية عدد غير قليل من الشخصيات الفرنسية

---

http://www.elwatannews.com/news/details/515790

([82]) التبرعات وحدها لا تكفي.. أين رأس المال الاجتماعي؟ بوابة الوطن 2014/8/3م
http://www.elwatannews.com/news/details/531694

البارزة في المجتمع قبل أن يسمح لهم الدخول في الانتخابات. فالانتخابات في الدول الغربية أو في غيرها ليست ديمقراطية بشكل كامل[83].

أضف إلى هذا أنه انتقد أعضاء المجالس البرلمانية المنتخبة في معظم دول العالم، والذين لا يهتمون غالبا إلا بمصالح دوائرهم الانتخابية الخاصة ولا يركزون إلا على أولوياتهم الخاصة، وأولويات الجهات التي مولت حملاتهم الانتخابية. كما انتقد ما يذهب إليها كثير من النظم الديمقراطية التي تراعي فيها الأحزاب المصالح الفردية لأعضاء الحزب على حساب الأحزاب الأخرى، كما أنها لا تراعي إلا المصالح الحزبية، وتضعها في المقام الأول على حساب المصلحة العامة[84]! ولم تسلم الإدارات الحكومية في معظم دول العالم، والأحزاب الفاشية أو ما يناظرها، والمؤسسات الكبرى من نقده، كونها ذات طابع استبدادي مطلق السلطة، وبيروقراطية، ورغبة صاحب أو أصحاب السلطة فيها هي أساس الشرعية. ولذا فهي– عنده– تسلطية، فضلا عن كونها تضيق الخناق على المجتمع المدني ومنظماته، وتبذل كل جهودها للانفراد بمناطق التأثير والنفوذ، وتستحوذ على مصادر الثروة، ولا تركز جهودها على تحقيق المصالح العامة إلا بشكل مظهري دعائي وبمقدار ضئيل لذر الرماد في العيون لزوم المظهرية الإعلامية وتضليل الجماهير، وتعمل جاهدة على تحقيق مصالح النخبة من كبار الساسة والموظفين وأصحاب رؤوس الأموال ورجال الأعمال وأصحاب النفوذ[85].

([83]) الخشت، الديمقراطية في أرض النفاق، بوابة الوطن 2013/8/10م
http://www.elwatannews.com/news/details/251256

([84]) الخشت، الديمقراطية في أرض النفاق، بوابة الوطن 2013/8/10م
http://www.elwatannews.com/news/details/251256

([85]) الخشت، الديمقراطية في أرض النفاق، بوابة الوطن 2013/8/10م
http://www.elwatannews.com/news/details/251256

(ISSN : 2536 - 9555)

ويؤكد الخشت على أنه لا تظهر هذا الأمور غير الديمقراطية في الدول الديمقراطية على مستوى السياسة الداخلية لكل دولة، بل تظهر أيضا وبشكل أكبر وأكثر حدة في السياسات الخارجية التي تحكم العلاقات بين دول الغرب ودول الشرق الأوسط خاصة العربية والإسلامية، وباستثناء إسرائيل المدللة، كما تظهر في العلاقات بين دول الشمال والجنوب والدول الغنية والفقيرة والقوية والضعيفة. ثم إن معول الديمقراطية الذي يهدم بنيانها في العالم يتلخص في أن المنظمات والمؤسسات الدولية تحت سيطرة الدول القوية التي أنشأتها، وتتظاهر بالديمقراطية، ولا تمارسها إلا بالقدر الذي يحقق مصالح الدول الكبرى؛ واستخدام حق الفيتو من الأمثلة على ذلك. ومن هنا فمن الواضح أن السياسات التي تنتهجها الدول الديمقراطية الكبرى في العلاقات الدولية ليست ديمقراطية، فالدول الديمقراطية الكبرى نفسها غير ديمقراطية في سياستها الخارجية[86].

وهو منطق كان يراه الخشت غير متماسك؛ وقد أثبت فشله؛ لأنه ضد مصالح الناس، وتأكيد لمصالح النخبة، ولأنها ضد قانون الارتقاء الطبيعي الذي يعمل على الفرز والتمحيص ويجعل البقاء للأصلح.وإنما كان المنطق المتماسك عنده أن من ينحاز إلى مصالح الناس لابد وأن يفتح المجال للديمقراطية، ويعطي إرادة الشعوب المساحة اللائقة بها، وفي ظني أنه لا يمكن أن يوجد نظام سياسي يعبر عن مصالح الشعوب تعبيرا حقيقيا إلا بتفعيل الديمقراطية غير المبتورة.إن علاج مشكلات الديمقراطية عنده هو المزيد من الديمقراطية، بتفعيل وثائق حقوق الإنسان، وتفعيل الدساتير المكتوبة، وحق الانتخاب الفعلي للجميع، والاقتراع

([86]) الخشت، الديمقراطية في أرض النفاق، بوابة الوطن 2013/8/10م
http://www.elwatannews.com/news/details/251256

السري، والدوائر الانتخابية المتكافئة، وتناوب المناصب، وتداول السلطة العليا، وعدم التدخل في إرادة الجماهير[87]!.

لقد أراد الخشت دستورًا يتحول المصري فيه من موجود من أجل الحاكم إلى موجود من أجل الوطن، ويتحول "الوطن" فيه من وسيلة إلى غاية. ويتحول الحاكم فيه من غاية إلى وسيلة، من صانع للأوامر والحاكم بأمره أو بأمر الله، إلى الحاكم بأمر الشعب، والشعب هو مصدر السلطة يمنحها ويمنعها؛ والإرادة الكلية للشعب هي التى تأمر وتفوض؛ إذ بهذا وحده ينقلب منطق العبد والسيد في كل الدساتير السابقة، ويتحول الحاكم المطلق الدائم المهيمن إلى حاكم نسبي يأتي ويذهب، ويُعين ويُخلع، ويتحول المواطن إلى مطلق.. إن حكم بصوته في الصناديق أو بأقدامه في الميادين فقد صار حكمه واجب النفاذ!.[88]

ومن ثم فإنه مما كان يؤلم الخشت أن الحاكم عندنا في مصر فهم خطأ أن انتخابه رئيسا معناه أنه أصبح الحاكم المطلق، وعلى الجميع أن يطيعوه؛ أليس هو رئيسا منتخبا! فالرئيس المنتخب عنده هو وحده صاحب السيادة والشرعية، يحكم ويشرع، ويعطي ويمنع، ويحرك الجيوش، ويتسلط على القضاء! وهذه ليست سمة تخص رئيس الجمهورية المنتخب فقط – في رأي الخشت – بل هي سمة الكثير من المنتخبين في أحزاب بلدنا المحروس! فانتخابهم يعني عندهم شرعية التسلط والتحكم في العباد! فالوطن أو الحزب مثل "السمكة" يمسكها من رأسها ثم ينفضها أعلى وأسفل وشمالا ويمينا ثم يضربها أرضا ما شاء! أليس هو الرئيس

([87]) الخشت، الديمقراطية في أرض النفاق، بوابة الوطن 2013/8/10م.
http://www.elwatannews.com/news/details/251256

([88]) الخشت، حتى لا ننتج ديكتاتورًا جديدًا، (2/2) بوابة الوطن، 2013/9/7م.
http://www.elwatannews.com/news/details/307638

(ISSN : 2536 - 9555)

الشرعي![89]. ومن ثم كان يؤيد النظام شبه الرئاسي؛ حيث كان يرى فيه نظام الحكم الأمثل لمصر؛ لأنه يضمن أن يكفل الدستور التوازن بين السلطات وبين أفراد الشعب، ويقوم على مبدأ المواطنة، والمساواة في الحقوق والواجبات، واحترام إرادة الناخبين، وتحديد سلطة زمنية للحكم غير قابلة للتمديد، حتى لا يستأثر الحاكم بكل السلطات، فالسلطة المطلقة عنده مفسدة مطلقة، إضافة إلى أن الدستور يضمن وجود برلمان منتخب، ومعبر عن كل شرائح المجتمع[90].

إن الحل البسيط لمواجهة الفوضى عند الخشت هو الديمقراطية، يقول: " الفوضى حلها تطبيق القانون بحسم وعدالة ناجزة دون تراخ ودون ارتعاش. فمأساتنا أننا نتأرجح دوما بين الاستبداد والفوضى.. مرة نعيش تحت القهر، ومرة نعيش تحت الفوضى، ولا نعرف المنطقة الوسط (الحرية المسئولة الملتزمة بالقانون). ولذلك فليس بديل الفوضى هو العودة للاستبداد ولا الدولة البوليسية، بل هو الالتزام بالقانون من الناس، والالتزام بتطبيق القانون على الجميع من الحكومة"[91].

([89]) الخشت، حتى لا ننتج ديكتاتورًا جديدًا، (2/2) بوابة الوطن، 2013/9/7م.
http://www.elwatannews.com/news/details/307638

([90]) انظر حمدي بشير، الفكر السياسي الإسلامي وإعادة بناء الدولة العصرية في مصر (قراءة تحليلية في فكر عثمان الخشت)، كتاب عقلانية بلا ضفاف، ص 150. انظر د. شريف مصطفى، الخشت ورؤية إسلامية مختلفة، لتطورات الثورة المصرية، كتاب عقلانية بلا ضفاف، ص 218.

([91]) الخشت، نحو تأسيس عصر ديني جديد، ص 158، 159، وانظر الخشت، الإسلام الحر ومعضلة الفوضى في مصر، بوابة الوطن، 2013/11/2م
http://www.elwatannews.com/news/details/349668

فمأساتنا في مصر كما يراها الخشت– تارة الاستغلال السيّيء للحريات العامة والخاصة، وتارة أخرى التعدي عليها، ولا يزال العرض مستمرا: مرة فوضى ومرة استبداد! [92].

ب – المجتمع المدني الحقيقي:

وقد خرج لنا الدكتور الخشت بثوب جديد، لم نكن نألفه عليه من قبل، هذا الثوب هو ثوب المدني المبتكر، فخرج علينا بالكشف عن نوع من الاجتماع المدني، الذي يتخذ من العقل طريقاً له، فكتب لنا: كتاب المجتمع المدني، وكتاب المجتمع المدني والدولة وكتاب المجتمع المدني عند هيجل. غير أن الدكتور الخشت رغبة في ارتداء هذا الثوب الجديد، لم يتنازل عن أولوياته الفكرية، وإنما حمل مشروعه معه أينما حل أو ذهب، حمل عقله ومنهجه، لقد لفت نظر الباحثين إلى مدنية ذات بناء عقلاني منهجي بعد ما احتلت في نظر الناس مكانة مغلوطة رسختها فيهم أفعال من يدعون انتماءهم إلى هذه المدنية في وطننا، حتى أظهرتهم هذه الأفعال في صورة الذي يكره العقل ويتسم بالتناقض، ويأتي بأقوال مرفوضة لا تمت لعادات مجتمعنا وثقافته بشيء. كما لفت نظر هؤلاء إلى أن السياسة الحقيقية هي تلك السياسة التي تعمل في صالح الوطن، لا من أجل انتماءات حزبية، أو رغبة في تطبيق أجندات خارجية لا تهتم بغير مصلحتها هي.

لقد وجد الخشت في المجتمع المدني الحل الوحيد في عصر تمت فيه تجربة معظم الحلول وتم فيه أيضًا إثبات فشلها، فالمجتمع المدني عنده يقدم نفسه كحل لم يتم تجريبه بشكل شامل، وليس المقصود بالمجتمع المدني عند الخشت كما هو

([92]) الخشت، نحو تأسيس عصر ديني جديد، ص 165، وانظر الخشت، الإسلام الحر وحرمة الحياة الخاصة، بوابة الوطن، 2013/11/9م.
http://www.elwatannews.com/news/details/353192

(ISSN : 2536 - 9555)

في الواقع المشاهد الآن– أي المجتمع الموجود بالفعل، بما فيه من سلبية وارتزاق وعدم شفافية في كثير من الأحيان– وإنما المقصود المجتمع المدني كنظام ومنهج أيديولوجي لمجتمع مفتوح وتعاوني وحر.

وربما كان من أهم الدوافع التي أملت عليه الدخول في هذا المعترك السياسي القائم على مؤسسات المجتمع المدني ما يلي:

الأول، إيمان الخشت غير المحدود بأن العبء الأكبر يقع على المثقفين في زماننا في تطبيق أهداف المجتمع المدني والترويج له كنظام ومنهج لمجتمع عصري، وهذا العبء لن يستطيعوا القيام به إلا بتخليهم عن المناقشات العقيمة والأفكار غير القابلة للتنفيذ.

الثاني، للتأكيد على أن حلول مشاكلنا ليست في بطون الكتب ولا في الصالونات الثقافية، وإنما في العمل الفعال بين الناس.

الثالث، إيمانه بأن الحديث عن خيارات الماضي لا يجدي نفعًا، في حين ينبغي الحديث عن خيارات المستقبل؛ لأن الخيارات الماضية أصبحت خارج التاريخ.

ومن ثم كانت دعوته الجادة إلى المثقفين والمفكرين والسياسيين بشق طريق جديدة يتجاوبون فيها مع روح العصر ويجابهون بها بشكل عملي مشكلات المجتمع وأزماته ومتغيرات ما بعد سقوط الاشتراكية وانتهاء الحرب الباردة وأحداث سبتمبر متجاوزين الاختيارات العتيقة التي ثبت فشلها جزئيًا وكليًا، لقد أراد الخشت أفكارًا قابلة للتنفيذ على أرض الواقع عبر تأسيس طريق جديد للتنمية الشاملة والمستدامة، لقد كانت هذه الخطوة عند الخشت ضرورية، لكنها غير كافية؛ إيمانًا منه بأن أحد أهم مشاكلنا أننا لا نريد أن نعمل، ومن ثم نراه يتساءل مستنكرًا: ما قيمة الأفكار الخلاقة مع أناس يرتعون في السلبية، ويدخل الإهمال في بنيتهم

النفسية؟[93]. لقد هال الخشت المرض النفسي الذي يعتور الشخصية العربية التي تنتظر الحل من الأعلى أو من الخارج، بينما كان يؤمن إيمانًا جازمًا بفلسفة التاريخ التي تقول بأن الحل لا يأتي إلا من الأسفل أو من الداخل، أي من المجتمع المدني وهو الحل الذي ارتآه لأمة تترنح وسط عالم لا وجود حقيقي فيه إلا للأقوياء. وقد أملت على الخشت في ذلك دوافع عقدية ومنطقية في الوقت ذاته: أما العقدية فتأثره بقوله تعالى: " إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم." أما الدوافع المنطقية فإيمانه أن التنمية الشاملة والمستدامة كحل لن تتحقق إلا بتفعيل المجتمع المدني، وتفعيله لا يمكن أن يكتمل إلا بتعميق الديمقراطية والشورى الملزمة، وتقديم وتنفيذ تصورات جديدة مركبة تنشأ بحكم الظروف المجتمعية المتجددة، واتساع رقعة الفكر الحر، وانتشار المد الديمقراطي[94]. وإذا كان مفهوم المجتمع المدني لا يزال غير معروف أو غامضًا في كثير من الأحيان، وإذا كانت كتب الفلسفة السياسية ترتكز على مفهوم الدولة وتهمش مفهوم المجتمع المدني فإن جهود الخشت تأتي كمحاولة لجعل مفهوم المجتمع المدني مفهومًا مركزيًا، بحيث ينقله من الهوامش إلى البؤرة ومن الظلام إلى النور، والانطلاق منه كنقطة بدء أولى. وما ذلك إلا لإيمان الخشت العميق بأن المجتمع المدني هو الأصل والأساس العقلي المتين لأي شرعية سياسية، وأنه المسئول عن سلامة أو فساد الحياة السياسية. ومن ثم "يؤكد الدكتور الخشت على أن العلاقة بين المجتمع المدني والدولة ليست في سيطرة الدولة على المجتمع المدني، ولا في إضعاف سيطرتها عليه، ولكن في الشراكة بينهما.."[95].

([93]) انظر المجتمع المدني، سلسلة الشباب، الهيئة العامة لقصور الثقافة، 2004م، ص5،6.

([94]) انظر السابق، ص 6.

([95]) د. سامية صادق سلام، رؤية الخشت النقدية للعلاقة بين المجمع المدني والدولة، كتاب عقلانية بلا ضفاف، ص 199.

(ISSN : 2536 - 9555)

لقد كان يؤمن إيمانًا جازمًا بأن القيادة السياسية تعبير حقيقي عن حقيقة الشعوب، أو مرآة تعكس ما عليه الناس، فكان يرى أنه إذا كانت الديمقراطية مزيفة والناس سلبيين، وغير عابئين بما يحدث، وغير مشاركين في الحياة السياسية فإن ذلك في نظره يرجع غالبًا إلى عدم سلامة وفعالية البنية التحتية في الحياة السياسية، أي المجتمع المدني، لقد أراد أن يبصر بأمر مهم مؤداه: أن أحوال الناس وطريقة حياتهم وأخلاقهم وأساليبهم الاجتماعية يترتب عليها منطقيًا أسلوب الحكم الذي يتلائم معهم، فالمجتمع الصالح يضع نظام حكم صالح، والعكس بالعكس، والمجتمع الديمقراطي عنده يتمخض عنه حكم ديمقراطي، والمجتمع غير الديمقراطي ينشأ عنه بالضرورة نظام غير ديمقراطي، ومن ثم كان الوضع الطبيعي الذي يجب البدء به هو المجتمع المدني باعتباره الأصل من الناحية الزمنية بحكم التطور التاريخي للنوع الإنساني، وهو الأصل من الناحية المنطقية[96]. ومع أن هذه القضية تبدو واضحة فإنه مما كان يألم له الخشت أن أغلب البحوث في الفلسفة السياسية تتوجه إلى الدولة كمفهوم مركزي، بينما تهمش سائر المفاهيم الفلسفية السياسية، ومن أهم هذه المفاهيم المهمشة مفهوم المجتمع المدني، حتى مع وجود بعض البحوث التي كانت تناقش مفهوم المجتمع المدني فإن هذه المناقشة كانت تنطلق في نظره من مفهوم الدولة؛ إذ كانت تسير من الدولة إلى المجتمع المدني معتبرة الدولة هي الأصل والمجتمع المدني هو الفرع. في حين نفض الخشت عن نفسه كل هذا النهج الخطأ، ومن ثم كانت دراسته وجهوده في بناء المجتمع المدني تنطلق من المجتمع المدني– لا الدولة– باعتباره الأساس والروح لأي حياة سياسية[97].

([96]) انظر المجتمع المدني، ص 6، 7.

([97]) انظر المجتمع المدني، ص 7.

ومن ثم فالمجتمع المدني عند الخشت لا يكتفي بعرض الأفكار السابقة للفلاسفة والمفكرين والسياسيين، وإنما يسعى لتقديم وجهة نظر حرة وناقدة للأفكار ذات الطابع الشمولي، وهي تلك الأفكار التي تنادي بدولة شمولية، وهي الدولة التي لا تسمح بحرية تبادل السلطة، ولا بوجود أية مؤسسات مستقلة: كالقضاء والجامعات والنوادي والجامعات والجمعيات، وتنظر لأفكارها الأيديولوجية على أنها الوحيدة التي تملك الشرعية وتعبر عنها، ومن ثم فلا تعدد ثقافي، ولا تنوع أيديولوجي، وتلغي الفرد لصالح الدولة.

وإذا كان المجتمع المدني عند الخشت لا يكتفي بعرض أفكار الفلاسفة والسياسيين عن المجتمع المدني، فإنه يهدف إلى الآتي:

أولاً– يسعى لتقديم وجهة نظر ناقدة للأفكار ذات الطابع الشمولي؛ بغية تدعيم الفكر الفردي الحر، وترسيخ قيم ومفاهيم الديمقراطية، ودعم استقلالية المجتمع المدني كحل لا يقبل الشك للإشكاليات العالقة بين السلطة والمجتمع والفرد.

ثانيًا– يسعى إلى الكشف عن المغالطات التي تقع فيها الأنظمة الشمولية المتطرفة، والأنظمة الليبرالية الجذرية، باعتبار التطرف– أيًا كان مصدره جهة اليمين أم جهة الشمال– يدل على وجهة نظر أحادية الجانب، وعلى الانحياز لفئة اجتماعية دون أخرى.

الثالث– القضاء على مظاهر التطرف القائم على السعي نحو تأكيد الهيمنة المطلقة للدولة، كذلك القضاء على التطرف القائم على السعي نحو المناداة بتلاشي سلطة الدولة، باعتبار هذه المظاهر جميعها قد ثبت فشلها.

الرابع– التأكيد على أن المجتمع المدني إذا كان لا يعمل دون رقيب؛ لأن ذلك نوع من التهور، فإنه من المغالطة كذلك فرض الهيمنة الشاملة عليه.

(ISSN : 2536 - 9555)

الخامس– تقديم الحل الأمثل في فك لغز العلاقة بين الدولة والمجتمع المدني والقطاع الخاص، وهو الحل الذي يقوم على الشراكة القائمة بدورها على التوازي والتكافؤ، وليست الشراكة القائمة على الهيمنة والابتلاع لطرف دون آخر.

ومن ثم فهناك علاقة واضحة ووثيقة بين المجتمع المدني والديمقراطية، فكل من ينحاز إلى الناس عند الخشت لا بد أن يفتح المجال للديمقراطية، ويعطي المجتمع المدني المساحة والدور اللائقين به، ولا يمكن أن يوجد مجتمع مدني حقيقي عنده إلا بتفعيل الديمقراطية، وإذا كانت الديمقراطية هي الأسلوب الأمثل في إدارة المجتمع المدني، فإنها لا يمكن أن تحقق أغراضها، بل لا يمكن أن تكون ديمقراطية حقيقية دون أن تعم سائر القطاعات من أسفل إلى أعلى، بداية من حقوق الفرد، مرورًا بحرية الصحافة، واستقلال القضاء والمؤسسة التشريعية وصولاً إلى كافة مؤسسات الدولة التي تتشكل وتعمل هي الأخرى وفق آليات ديمقراطية صارمة، فالديمقراطية عند الخشت يجب أن تكون كاملة وليست مبتورة بمعناها الغربي التقليدي أو بمعناها الشرقي المزيف، ومن ثم فقد كان عليه أن يكشف أزمة الديمقراطية المعاصرة في العالم وفي الوطن العربي، ومن ثم فقد كان حل أزمات الديمقراطية عند الخشت لا يكون إلا بمزيد من الديمقراطية؛ إذ هي الآلية الملائمة للحكم وتداول السلطة، كما أنها تمثل عنده أكبر ضامن للسلام الدولي[98].

ج – المواطنة:

وإذا كان الخشت قد بدأ فكره السياسي بالتمسك بالديمقراطية كحل ومنهج، وإذا كان قد أردف ذلك بحديثه عن المجتمع المدني في مؤلفاته: المجتمع المدني عند هيجل، المجتمع المدني والدولة والمجتمع المدني فإن رائعة الروائع الذي أكمل به

(98) انظر السابق، 85 وما بعدها.

مشروعه السياسي هو دراسته عن المواطنة من خلال كتابه الأحدث فلسفة المواطنة في عصر التنوير، حيث صاغ الخشت تعريفه للمواطنة وسط بحر خضم من الاختلافات العالمية والمحلية حول هذا المفهوم بما يتضمنه من قضايا فرعية تندرج تحته، ومن ثم فقد تعامل الخشت مع المفهوم بشيء من الاتساع، فالمواطنة عند الخشت مفهوم قد يضيق وقد يتسع،، قد يضيق ليقتصر على نخبة، وقد يتسع ليشمل عدة نخب، وقد يزداد اتساعًا، فيشمل كل المنتمين إلى دولة ما أو أمة، وفي أحيان قليلة ربما يشمل مفهوم المواطنة كل الجنس البشري في إطار دولى عالمي قد يكون له شكل الدولة الواحدة، وقد يكون له شكل التكوين الفيدرالي الذي يجمع عدة دول في إطار حكومة عالمية أو عصبة أمم[99].

ويعد مفهوم الخشت هنا دليلاً على ما يكتنفه هذا التعريف من إشكالية، وهي الإشكالية التي كان يدرك أنها نتيجة اختلاف التحليلات الفلسفية، وتعارض النظريات الاجتماعية، كما أنه نتيجة عدم انتهاء النظريات السياسية إلى رأي أخير يوضح ماهيته، ومن ثم كان محصلة هذا كله التباين الواضح الذي عليه الأنظمة السياسية عبر العالم، بل عبر أحزاب الدولة الواحدة في تحديد معالمه ومضمونه.

ومع هذا فإن الخشت لم يقف عند مجرد التعريف الاصطلاحي لمفهوم المواطنة، بل تعامل معه ككائن حي له ماض وحاضر ومستقبل، ينشأ وينمو ويتطور، ويتراجع ويتقدم، ويقوى ويضعف، ويتداخل ويتخارج مع مفاهيم أخرى. وهو بذلك لا تزل قدمه في اقتطاع المفهوم من وضعيته التاريخية وجذوره، وما آلت إليه صيرورته في الوقت الراهن. ومن ثم فقد توقف الخشت كثيرًا عند عصر التنوير باعتباره العصر الذي حمل معالم الارتباط العضوي بين المواطنة والحداثة؛

(99) انظر فلسفة المواطنة في عصر التنوير، القاهرة، ط دار الثقافة العربية، 2012م، ص 9.

(ISSN : 2536 - 9555)

إذ كل عناصر الحداثة الماثلة في أعمال طائفة كبيرة من فلاسفة وكتاب التنوير ترتبط– عند الخشت– ارتباطًا نظريًا مع مفهوم المواطنة عندهم؛ حيث يعكس هذا المفهوم أسمى ما قدمه هذا العصر[100]. ومن ثم فقد كان الخشت معنيًا في دراسته بالآتي:

- معنى المواطنة.
- أبرز سماتها وأسسها.
- ارتباط المواطنة بفكرة الحداثة.
- المواطنة تشكل الأساس الركين في بناء الديمقراطية.
- ومن ثم نفهم– في التحليل الأخير– أن النظام السياسي الصحيح يقوم عند الخشت على أسس ثلاثة:
- الديمقراطية في الحكم.
- المجتمع المدني.
- المواطنة.

سابعاً: كشف الاتجاهات الخارجة عقدياً وعقلياً:

نقد الخشت العديد من التيارات والاتجاهات عبر مراحل حياته الفكرية التي لا تزال مليئة بالعطاء، وهو في سبيل نقده لهذه الاتجاهات وتلك التيارات كان يقوده عقله وإيمانه؛ إذ لم يكن ينقد الفكرة أو الرأي إلا تحت مظلة الأسس العقلية العقدية، التي كانت سلاحه الذي حمله معه أينما حل.

ويظهر هذا الأساس الفكري في العديد من كتب الخشت الفكرية، منها على سبيل المثال:

([100]) انظر الخشت، فلسفة المواطنة، ص 10، 11.

- تطور الأديان.
- المعقول واللامعقول في الأديان.
- العلم والدين بين رينان والأفغاني.
- فلسفة العقائد المسيحية.
- العقل وما بعد الطبيعة.

وغيرها من الموضوعات التي جعل الخشت أساسه الفكري فيها– بالإضافة إلى أسس فكرية أخرى – كشف بعض الآراء الخارجة عقليًا وعقدًا، سواء أكان هذا الخروج في المنهج أو في تناقض الأفكار، أو في نظرتها المغالية إلى تهميش الدين كما فعل هيجل، أو الإعلاء المغالي في قدره كما فعل ليبنتز.

ويكفي أن نذكر مثالاً على ذلك نقده لموقف هيجل من الدين، فقد هاله علاقة الموقف الأيديولوجي والسياسي الهيجلي بتهميشه للدين، وإخراجه له من سياق الأديان العالمية، وقد نقده الخشت في ذلك نقدًا قويًا عقلانيًا مقنعًا مستدلا على أن الإسلام– لأسباب موضوعية صرفة– من أكثر الأديان تأثيرًا في حركة التاريخ بما ذهب إليه مايكل هارت في كتابه: "المائة: تقديم لأعظم الناس أثرًا في التاريخ". غير أن الخشت لم يكن ليقف عند حدود اعتراف بعض المفكرين الغربيين بدور الإسلام العظيم كما يذهب إلى ذلك كثير من مفكرينا، وإنما كان يمتلك في جعبته العديد من الأدلة والبراهين التي تجعله في غنى عن آراء الآخرين واستدلالاتهم، لقد وجد في الإسلام أكثر الأديان توافرًا لشروط العالمية، من حيث كونه يتحدث عن الله تعالى رب العالمين، وليس رب قوم بعينهم فقط، ومن أن الخطاب القرآني موجه إلى العالم كافة، ومن حيث كون الإسلام يعترف بالتمايز والاختلاف بين الشعوب، ومع هذا فهو لا يعمل على إلغائه، بل يقر به كنوع من الاختلاف المنتج الذي يؤدي إلى التلاقي والتقدم، مستدلاً على ذلك بآيات القرآن الكريم، كما أن الإسلام لا يجاهد من أجل إلغاء الآخر بل يجاهد فقط المعتدين والقتلة

(ISSN : 2536 - 9555)

والظالمين، ويحث المؤمنين به على التواصل مع الآخرين، إلى غيرها من الأسباب الموضوعية التي تؤكد عالمية الإسلام، مثل: الحرية والشورى والمساواة، والتي تجاهلها هيجل أو جهلها[101].

ومن الأمثلة الدالة على أن الخشت كان من ضمن أسسه وأهدافه الفكرية كشف الاتجاهات الخارجة عقديًا وعقليًا موقفه من الأديان الوضعية والأديان السماوية غير التوحيدية في كتابه تطور الأديان، فقد نقد هذه الأديان لأسس عقلية عقدية معتبرًا أن العقل لا يقبل بفكرة تعدد الآلهة، أو بفكرة عدم وجود الإله، في حين نقد هذه الاتجاهات الدينية عقليًا، فقد نقدها عقديًا بالدين الإسلامي وعقيدته الغراء، فقد نقد الخشت الأديان الوضعية بالدين الإسلامي، ونقد الأديان السماوية غير التوحيدية بالدين الإسلامي أيضًا، وما ذلك إلا لأن الإسلام يحمل في داخله عوامل تطوره المبنية على أسس عقلية تهتم بالعقل وتعرف دوره المنوط به.

ثامناً- الدعوة لأخلاق كونية:

يمكن القول دون تردد إن الدكتور الخشت قد قرّب الوشائج والعلاقات بين الدين والأخلاق خاصة في تعويله على الدين النقي باعتباره الذي يقدم الأمل في أن الجهود المبذولة في إقامة ملكوت الأخلاق والعدالة والسعادة لن تضيع هدرًا، وفي تعويله على علم الأخلاق باعتباره يساهم في تنقية الدين من التفسيرات المغلوطة التي يقدمها له أهل المصالح، وباعتباره يساهم في إعادة التأكيد على الوظيفة الأخلاقية للدين، ومن ثم كانت العبادة الحقة عند الخشت تكمن في السلوك الأخلاقي النابع من أداء الواجب المنبثق من العبادة الحقة، وكأن الدكتور الخشت يقيم جسورًا من التواصل بين الأخلاق الدينية والأخلاق الكانطية رابطًا في

(101) انظر المعقول واللامعقول في الأديان بين العقلانية النقدية والعقلانية المنحازة، القاهرة، ط دار نهضة مصر، 2006م، ص 10.

وضوح بين أداء الواجب والعبادة الحقة، فالعبادة الحقة عند الخشت تعني– في التحليل الأخير– العمل بالواجب.

ومن ثم فقد نجح أستاذنا فيما فشلت فيه فلسفات الحداثة من الوصول إلى حد أدنى مشترك للأخلاق؛ لأنها لم تكن مشغولة بذلك، وإنما اكتفت بمحاولة الوصول إلى الحد الأقصى الأخلاقي، فكانت عند الدكتور الخشت تعمل على بناء منظومتها الأخلاقية كمنظومة تصل إلى قمة الهرم الأخلاقي على أنقاض الفلسفات الأخرى، ولم تتمكن تلك الفلسفات من تقديم أخلاق يمكن أن ينفذها الناس في حياتهم؛ حيث ظلت محلقة في سماء البحث عن مبادئ أخلاقية قصوى تنوء بها الطبيعة البشرية، وتكرس الخلاف بين الناس، وإن نزلت بعض هذه الفلسفات أرض الواقع فإنها تهاوت في نسبية مفرطة وسعت من مجال الخلاف بين الأفراد والمجتمعات البشرية، ومن ثم ابتعدت عن الوصول إلى الحد الأدنى المشترك في الأخلاق.

لقد وجه الخشت انتقادات شديدة لفلسفات الأخلاق في عصر الحداثة، فهي لم تقدم أخلاق الحد الأدنى، "وفي الوقت الذي حلل فيه الخشت نقديًا أهم النظريات الفلسفية الأخلاقية، فقد توصل إلى تحديد مفهوم أخلاق الحد الأدنى أو نواة الأخلاق، بين الدين وفلسفة الأخلاق، كما استطاع أن يصوغ واجبات هذه الأخلاق في مصطلحات محددة وأحكام معيارية ملموسة يخضع لها الجميع دون استثناء، محتكمًا إلى العقل النقدي المستقل"[102].

وإذا كانت أخلاق الحد الأدنى عند كونج تقوم على مبدأين أساسيين، فقد أرجعهما الخشت إلى مبدأ واحد،؛ فمبدأ "كل إنسان يجب أن يعامل على نحو

([102]) نجلاء مصطفى، الأخلاق وعلاقتها بالدين في منظومة الخشت الأخلاقية، كتاب عقلانية بلا ضفاف، ص 244.

(ISSN : 2536 - 9555)

إنساني" متضمن عنده منطقيًا في مبدأ "ما تتمناه من الآخرين افعله لهم"، ومن ثم فأخلاق الحد الأدنى عند الخشت تقوم على مبدأ واحد هو، "عامل الناس كما تحب أن يعاملوك"، وهذا المبدأ يقوم على قاعدة عدم التناقض، فالإرادة المتناقضة عنده هي التي تعطي لنفسها حقًا، بينما تمنعه من الآخرين، وتسوّغ لنفسها فعلاً، بينما تحرّمه على الناس.

وهكذا أثبت الخشت في كتابه القيم– رغم كل هذه التباينات بين الأديان بعضها بعضًا، ورغم التعارضات بين فلسفات الأخلاق حول طبيعة الخير، ورغم كل تلك الاختلافات على كل جانب وبين كل جانب وآخر– أن ثمة نواة أخلاقية تمثل حدًا أدنى أخلاقيًا مشتركًا بينها جميعًا، ولم تكن فكرته عن الحد الأدنى الأخلاقي أيديولوجية جديدة، كما أنها ليست تعاليم من قبيل البنية الفلسفية المذهبية الفوقية، ولا تعنى بفلسفة منفردة أو دين بعينه، كما أنها لا تنشد جعل الأخلاق المحددة للأديان المختلفة بمثابة أمر ثانوي أو نافلة، وإنما فكرته عن الحد الأدنى تقوم على قاعدة ذهبية واحدة تنبثق منها معايير أخلاقية أساسية تشمل الحق الأصيل في الحياة والمعيشة الكريمة والمعاملة العادلة من الأفراد ومن الدولة والاندماج الذهني والجسدي في المجتمع. إن أخلاق الحد الأدنى عند الدكتور الخشت هي إجماع جوهري على قيم ملزمة ومعايير محددة وسلوكيات أساسية يتم إقرارها من قبل جميع الفلسفات على اختلاف أيديولوجياتها، وكل الأديان على اختلاف عقائدها. بل لقد كانت الحاجة ماسة عند الخشت إلى فلسفة للفعل والعمل لا للكلمة والنظر، فلسفة للتقدم، ومن ثم فلسفة للأخلاق، لكنها ليست أخلاق النظريات الفلسفية المجردة، وإنما أخلاقيات قابلة للتنفيذ، أخلاقيات للتقدم[103].

([103]) الخشت، الفلسفة الإسلامية المعاصرة بين الإجابة على الواقع والتفكير خارج التاريخ.

رابعاً – الخاتمة

انتهي البحث إلى مجموعة من النتائج التي يمكن إيجازها في النقاط الآتية:

أ. ضرورة العناية بدراسة المفكرين المعاصرين الذي أسمهموا بفكرهم ولا زالوا في بناء الفكر الفلسفي العربي والإسلامي في تلك الفترة الزمنية من تاريخنا الفكري؛ لأنهم استطاعوا أن يقدموا حلولاً للعديد من القضايا والإشكاليات التي ظهرت في عصرنا. فالمفكر محمد عثمان الخشت استطاع أن يقدم العديد من الحلول الفلسفية على صعيد مناقشة الفلسفة الغربية، وعلى صعيد المجتمع المدني، وعلى صعيد فكر المواطنة خاصة والفكر السياسي عامة، وعلى صعيد العديد من الجوانب الفكرية الأخرى.

ب. كشف الدراسة عن السمة الموسوعية التي يتسم بها الخشت، فالرجل كان فكره متعدد الجوانب، ويمكن أن نصنف إنتاجه الفكري في سبعة جوانب:

الأول، جانب الأديان أو فلسفة الدين، ويندرج تحت هذا الجانب عدة مؤلفات منها:

- مقارنة الأديان الفيدية البرهمية الهندوسية
- فلسفة العقائد المسيحية.
- العقائد الكبرى.
- تطور الأديان.

الثاني، جانب الفلسفة الحديثة والمعاصرة، ويندرج تحت هذا الجانب عدة مؤلفات شديدة الأهمية أيضًا منها:

- الدين والميتافيزيقا في فلسفة هيوم.
- العقل وما بعد الطبيعة بين فلسفتي هيوم وكنط.

(ISSN : 2536 - 9555)

- المعقول واللامعقول في الأديان بين العقلانية النقدية والعقلانية المنحازة.
- أقنعة ديكارت العقلانية تتساقط.

الثالث، جانب السياسة، ويندرج تحت هذا الجانب عدة مؤلفات منها:

- المجتمع المدني.
- المجتمع المدني عند هيجل.
- المجتمع المدني والدولة.
- فلسفة المواطنة وأسس بناء الدولة الحديثة.

الرابع، جانب الأخلاق، ويندرج تحت هذا الجانب عدة مؤلفات منها:

- الحد الأخلاقي المشترك بين الدين والفلسفة.
- أخلاقيات التقدم.
- أخلاق وسلوكيات التقدم.

الخامس، الجانب الاجتماعي، ويندرج تحت هذا الجانب عدة مؤلفات منها:

- المشاكل الزوجية.
- المرأة المثالية في أعين الرجال.
- الشائعات.

السادس، جانب المناهج، ويندرج تحت هذا الجانب عدة مؤلفات منها:

- مناهج البحث.
- فن كتابة البحوث العلمية.

السابع، جانب علوم الفقه والحديث، ويندرج تحت هذا الجانب عدة مؤلفات منها:

- الدليل الفقهي.
- فتاوى المرأة المسلمة في العبادات والمعاملات.
- فقه النساء في ضوء المذاهب الفقهية والاجتهادات المعاصرة.
- مفاتيح علوم الحديث وطرق تخريجه.

ج. ربط الفلسفة بالواقع والنظرية بالتطبيق من أهم النتائج التي تكشف عنها هذه الدراسة، فالخشت تكشف توجهاته عن ربط واضح بينهما، ولنأخذ دليلاً على ذلك إيمانه بقضية الديمقراطية، وأنها الحل السحري لنجاح أي نظام سياسي، حتى إذا قامت الثورة وتغيير النظام السياسي في مصر وجدنا الخشت يشارك من خلال مقالاته وحلقاته التليفزيونية في إرساء معاني الديمقراطية الحديثة محذرًا كل التيارات بعد الثورة من مغبة الانفراد بالحكم أو الوصول إلى مرحلة الاستبداد. ويمكن القول إن آراء الخشت السياسية كان تعبيرًا حقيقيًا عن روح الفقه الإسلامي السمح الوسطي الذي تتوارى فيه مظاهر التشدد والانغلاق على النفس، وهو – في الحقيقة– في موقفه السياسي كان يشرح السياسة الرشيدة في الإسلام، مؤمنًا بأن الإسلام دين وحياة، وليس دينًا فقط.

د. كشفت الدراسة عن المنطلقات التي ينطلق منها المفكر محمد عثمان الخشت في معالجة القضايا الفكرية، وهي المنطلقات المنهجية التي لا غنى لأي باحث عنها في دراسة الفلسفة أيًا كان العصر الذي تنتمي إليه، فقد انبنت منهجية الخشت على عدة أسس:

- العقلانية.
- غلبة الروح النقدية.
- المقارنة الممنهجة.

(ISSN : 2536 - 9555)

- التأسيس الموضوعي.

وغيرها من الأسس الفرعية التي تندرج تحت هذه الأسس الرئيسة، والتي تكشف عن منهجية واعية في التعامل مع القضايا محل الدراسة، ومنهجية في تقديم الحلول لها.

هـ. كشفت الدراسة كذلك عن المحاور الفكرية التي تضمنها إنتاج محمد عثمان الخشت، فالمحاور الفكرية التي تضمنتها الدراسة تكشف عن إلمام واضح بمفاصل الفكر الفلسفي في قضاياه الجوهرية وما تشتمل عليه من قضايا فرعية وخاصة فيما يتعلق بالفلسفة الحديثة والمعاصرة وفلسفة الدين وهما المجالان اللذان برع فيهما أستاذنا أيما براعة. وإدراك القضايا المفصلية في الفلسفة عامة ومحاولة تقديم الحلول لها نتيجة بارزة في هذه الدراسة التي كانت المحاور فيها تعبيرًا عن الإلمام الواضح بهذه القضايا. ولذا قام الخطاب الفلسفي عند الخشت على مجموعة من المحاور منها:

- بناء فلسفة عقلانية.
- المساهمة في بناء منطقي منهجي.
- بناء نسق وسطي معتدل.
- بناء مجتمع مدني.
- نقد الفلسفة الغربية.
- التوظيف العقلي لفلسفة الدين.
- الدعوة لأخلاق كونية

و. التأكيد على ضرورة عدم التسليم بالأفكار الفلسفية السابقة، وإنما استعمال الشك المنهجي فيها، وهذا ما فعله مفكرنا الخشت في العديد من دراساته، وأهمها على

الإطلاق كتاب أقنعة ديكارت العقلانية تتساقط. فإن مما يغوص فيه فكرنا العربي المعاصر بصورة فجة الانقياد خلف الفلسفة الغربية والسير خلفها حذو القذة بالقذة، دون تفكير عميق إلا في النادر، فالكثيرون من المفكرين العرب المعاصرين جعلوا الغرب قبلتهم، ومن ثم قبلوا بكل ما جاء به دون نقد أو تمحيص في الغالب فارتضوا أن يكون مقلدين، فلا نقد لقضية أو فكرة جاءت من الفكر الغربي، إلا أن هناك نفرًا لم يرتضوا أن يكونوا في هذه الزمرة، وإنما ارتضوا لأنفسهم ولفكرهم ألا يقبلوا رأيًا في الفلسفة الغربية دون أن يعرضوه على طاولة النقد، مستخدمين الشك المنهجي. ومن هؤلاء كان المفكر محمد عثمان الخشت، وتكشف دراسته عن ديكارت الموسومة بأقنعة ديكارت العقلانية تتساقط، عن هذه الروح النقدية والشك المنهجي بصورة رائدة؛ إذ إنه استطاع بالدليل أن يبين أن العقلانية الديكارتية سقطت كثيرًا وفقدت الجمع بين النظري والعملي، وأن ديكارت غلّب في كثير من الأحيان فهمه اللاهوتي على الدليل العقلي. كذلك يظهر الشك المنهجي في دراسته عن فلسفة الدين عند برايتمان، وكذلك دراسته عن فلسفة العقائد المسيحية قراءة في لاهوت ليبنتز.

ز. من نتائج الدراسة الدعوة إلى أن تكون الفلسفة العربية المعاصرة فلسفة ذات همة عالية، وهذا ما حاول المفكر محمد عثمان الخشت أن يرسيه في كل إنتاجه الفكري، ولعل هذه الهمة العالية هي أحد العوامل المهمة في وقوفه موقف الند للند من الفكر الغربي والفلسفة الغربية عند أهم أعلامها، وكأنه كان يحاول أن يرسي مبدأ أن الفلسفة العربية لا تقل بحال عن الفلسفة الغربية إذا هي أرادت ذلك، أما إذا أرادت لنفسها موقف التابع أو المقلد فإنها ستكون في المؤخرة.

ح. الجمع بين العقل والإيمان، فقد أراد الدكتور الخشت فلسفة بنكهة إيمانية تنويرية تقوم على القضاء على الاستبداد في الحكم، والقضاء على الاستبداد في الرأي، مع الاستناد إلى مراعاة الظروف والمتغيرات التي طرأت على عصرنا والقضايا

(ISSN : 2536 - 9555)

وثيقة الصلة بالعصر، والتي تعتبر من المستحدثات التي طرأت على الساحة الفقهية، وفي حاجة إلى ردود شافية تمنع الناس من التخبط، كل ذلك في إطار التمسك بأصول الإيمان، وهي تلك الدعوة الفقهية التي اصطدمت بما هو عليه واقع المسلمين من: ضعف الأخلاق وانتشار الرذيلة والاختلاف والشقاق بينهم، والتخلي عن مبادئ الإسلام الخاصة بالنظر الفكري والأخذ بأسباب العلم أياً كان مصدره النافع، كذلك اصطدمت بما عليه المسلمين من أمراض نفسية تتمثل في اليأس والجبن والتواكل وغيرها من الصفات الذميمة والمنهي عنها في الإسلام.

لقد كان الخشت في كل دراساته عن كل من القضايا السابقة يحاول– موفقًا– نقدها على أسس عقلية امتدحها القرآن والسنة النبوية؛ إذ ما تزال مسألة العقل والتنظير العقلي من أهم المبادئ التي يستند إليها الإسلام في حواره مع الأديان الأخرى، ونحن نستطيع بسهولة اكتشاف علاقة واضحة بين النقل والفلسفة على كافة مستوياتها العقدية منها والميتافيزيقية والسياسية. ولعل المتأمل في كتابات الخشت يكتشف ذلك بصورة مباشرة، فقد نقد برايتمان تحت إلحاح مؤثرات إيمانية عقلية، ونقد ليبنتز على أسس عقلية مصطبغة بصبغة إيمانية، وفي كتاباته عن مقارنة الأديان ينطلق الخشت من منطلق إيماني فلسفي واضح ظهر ذلك في كتاباته.

وثنائية العقل والإيمان عند الخشت هنا دليل على اهتمامه الواضح بفلسفة الدين؛ لأن الدين والعقل هما الأساس الذي يستند إليه، خاصة وأن الخشت هنا يتبع في دراسته لهذه الكتب المبدأ القرآني ذاته الذي كان يعرض للديانات السابقة– اليهودية النصرانية، المجوسية، الصابئة، وغيرها– في آياته القرآنية ناقدًا لها وموجهًا للمسلمين التوجه الصحيح نحوها، وهذه أمور عقدية من الدرجة الأولى تنبني على الاعتراف بالآخر مع ضرورة محاورته وجداله الجدال القرآني المهذب. فرغم أن الخشت يبدو في كل كتاباته– وهو كذلك حقًا– ذا منطق منهجي وعقلي،

وقد ظهر ذلك في مقارناته بين كانط وهيوم، وفي نقده لرينان وليبنتز وهيجل، فإن الناظر وراء السطور يجده يستند إلى الدين في أصوله الإيمانية ومبادئه الفقهية، فيكتشف أنه يمزج بين المنطق العقلاني، والأساس الإيماني، وقد يدل على ذلك بوضوح بروز المفاهيم الدينية في بنية منهجه وأفكاره الفلسفية، غير أننا لا نقول إن الخشت كان أسير بعد ديني – على النحو الذي اكتشفه هو نفسه في ديكارت الذي غلب عليه هو نفسه المنطق اللاهوتي على المنطق العقلي – ولكن على نحو مزج فيه اتجاهه العقلي بمعتقده الديني، خاصة أن الدين الإسلامي يحترم العقل ويقدر دوره.

المصادر والمراجع:

أولاً – مؤلفات محمد عثمان الخشت:

أ – الكتب:

1- الخشت، أخلاق وسلوكيات التقدم، ط القاهرة، هيئة قصور الثقافة، 2004م.

2- الخشت، الاعتقاد بين الإرادة والبرهان عند وليم جيمس، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، عدد 4.

3- الخشت، الإله والإنسان، إشكالية التشابه والاختلاف في فلسفة برايتمان، ط دار قباء الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2007م.

4- الخشت، الخشت، أقنعة ديكارت العقلانية تتساقط، القاهرة، دار قباء، 1998م.

5- الخشت، الإسلام والعلم بين رينان والأفغاني، ط القاهرة، دار قباء، 1998م.

6- الخشت، الإسلام والوضعية والاستشراق في عصر الأيدولوجية، ط دار نهضة مصر، القاهرة، 2007.

7- الخشت، تطور الأديان، ط القاهرة، مكتبة الشروق، 2010م.

8- الخشت، حركة الحشاشين، ط القاهرة، مكتبة ابن سينا، 1988م.

9- الخشت، الدين والميتافيزيقا في فلسفة هيوم، ط القاهرة، دار قباء / 1997م.

10- الخشت، الشائعات، ط القاهرة، مكتبة ابن سينا، 1985م.

(ISSN : 2536 - 9555)

11- الخشت، العقائد الكبرى، ط دمشق، دار الكتاب العربي، 2010 م.
12- الخشت، العقل وما بعد الطبيعة بين فلسفتي هيوم وكانط، بيروت، ط دار التنوير 2005م.
13- الخشت، العقلانية والتعصب، ط القاهرة، دار نهضة مصر، 2007م.
14- الخشت، فلسفة العقائد المسيحية، قراءة نقدية في لاهوت ليبنتز، القاهرة، دار قباء، 1998م.
15- الخشت، فلسفة المواطنة في عصر التنوير، القاهرة، دار الثقافة العربية، 2012م.
16- الخشت، الفيدية البراهمانية الهندوسيبة، مكتبة ابن سينا، القاهرة، 1996م.
17- الخشت، للوحي معان أخرى، القاهرة، هيئة قصور الثقافة، 2013م.
18- الخشت، المجتمع المدني، سلسلة الشباب، الهيئة العامة لقصور الثقافة، 2004م.
19- الخشت، مدخل إلى فلسفة الأخلاق، ط القاهرة، دار قباء، 2001م.
20- الخشت، المشترك بين الأديان والفلسفة، ط القاهرة، دار غريب، 2011م.
21- الخشت، المعقول واللامعقول في الأديان بين العقلانية النقدية والعقلانية المنحازة، القاهرة، ط دار نهضة مصر، 2006م، ص 10.
22- الخشت، مفاتيح علوم الحديث وطرق تخريجه، القاهرة، مكتبة القرآن، 1987م.
23- الخشت، مقارنة الأديان، ط مكتبة ابن سينا، القاهرة، 1990.
24- الخشت، مناهج البحث، ط دار الأمير، بيروت، 2010.

ب – المواقع الألكترونية:

- الخشت، الإسلام الحر ,, العودة إلى المنابع، بوابة الوطن، 2013/10/26م.
http://www.elwatannews.com/news/details/346095
- الخشت، الإسلام الحر وحرمة الحياة الخاصة، بوابة الوطن، 2013/11/9م.
http://www.elwatannews.com/news/details/353192
- الخشت، الإسلام الحر ودستور بلا أقنعة، بوابة الوطن، 2013/11/16م.
http://www.elwatannews.com/news/details/356744
- د. الخشت، الإسلام والسينما وحرية الإبداع (3/3)، الوطن، بوابة الوطن، 2014/5/18م.

http://www.elwatannews.com/news/details/484641
- الخشت، الإسلام الحر ومعضلة الفوضى في مصر، بوابة الوطن، 2013/11/2م
http://www.elwatannews.com/news/details/349668
- الخشت، التبرعات وحدها لا تكفي.. أين رأس المال الاجتماعي؟ بوابة الوطن 2014/8/3م
http://www.elwatannews.com/news/details/531694
- الخشت، حتى لا ننتج ديكتاتورًا جديدًا، (2 / 2) بوابة الوطن، 2013/9/7م
http://www.elwatannews.com/news/details/307638
- الخشت، الديمقراطية في أرض النفاق، بوابة الوطن 2013/8/10م
http://www.elwatannews.com/news/details/251256
- الخشت، الرأسمالية الوطنية والمصالح المستنيرة، بوابة الوطن 2014/7/6م
http://www.elwatannews.com/news/details/515790
- الخشت، الرؤية الأحادية للإسلام، بوابة الوطن 2013/10/12م.
http://www.elwatannews.com/news/details/339673
- الخشت، العقل المغلق،، بوابة الوطن، 2013/8/3م
http://www.elwatannews.com/news/details/238321
- الخشت، الفقر والرأسمالية المتوحشة.. هذا هو الحل، بوابة الوطن، 2014/6/29م
http://www.elwatannews.com/news/details/511974
- الخشت، القرآن وغريزة القطيع، بوابة الوطن، 2013/7/20م.
http://www.elwatannews.com/news/details/228097
- الخشت، لا للمساواة نعم للعدالة، بوابة الوطن، 2013/10/5م
http://www.elwatannews.com/news/details/335602

ج – مقالات غير منشورة:

- الخشت، التفكيكية.
- الخشت، العدمية.
- الخشت، الفلسفة الإسلامية المعاصرة بين الإجابة على الواقع والتفكير خارج التاريخ.
- الخشت، الوضعية: العجز عن الوصول إلى الواقع.

(ISSN : 2536 - 9555)

ثانيًا – المراجع العربية:

- أبو النور الشريف، عرض نقدي وتحليلي لكتاب للوحي معان أخرى، كتاب عقلانية بلا ضفاف، الظاهرة الدينية والظاهرة السياسية في أعمال الخشت الفكرية، ط دار الكتاب العربي، دمشق – القاهرة، 2013م.
- حمدي بشير، الفكر السياسي الإسلامي وإعادة بناء الدولة العصرية في مصر (قراءة تحليلية في فكر عثمان الخشت)، كتاب عقلانية بلا ضفاف، الظاهرة الدينية والظاهرة السياسية في أعمال الخشت الفكرية، ط دار الكتاب العربي، دمشق – القاهرة، 2013م.
- جاك دريدا، صيدلية أفلاطون، ترجمة كاظم جهاد، تونس، دار الجنوب للنشر، 1998م.
- جمال الدين الأفغاني، الرد على الدهريين، القاهرة، ط مطبعة الموسوعات، الثالثة، 1320هـ
- حسن حنفي، قضايا معاصرة: في الفكر الغربي المعاصر الجزء الثاني، بيروت، دار التنوير، ط1، 1982.
- حسن حنفي، مقدمة في علم الاستغراب، القاهرة، الدار الفنية،1991.
- ديكارت، مقال في المنهج، ترجمة محمود الخضيري، القاهرة، سميركو للطباعة والنشر، الطبعة الثالثة، 1985م
- رولان بارت، هسهسة اللغة، ترجمة: منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، حلب، ط1، 1999.
- سامية صادق سلام، رؤية الخشت النقدية للعلاقة بين المجمع المدني والدولة، كتاب عقلانية بلا ضفاف، الظاهرة الدينية والظاهرة السياسية في أعمال الخشت الفكرية، ط دار الكتاب العربي، دمشق – القاهرة، 2013م.
- سعيد علي عبيد، الخشت وتأويل جديد لميتافيزيقا هيوم، كتاب عقلانية بلا ضفاف، الظاهرة الدينية والظاهرة السياسية في أعمال الخشت الفكرية، ط دار الكتاب العربي، دمشق – القاهرة، 2013م.

- شريف مصطفى، الخشت ورؤية إسلامية مختلفة، لتطورات الثورة المصرية، كتاب عقلانية بلا ضفاف، الظاهرة الدينية والظاهرة السياسية في أعمال الخشت الفكرية، ط دار الكتاب العربي، دمشق – القاهرة، 2013م.
- شعبان عبد الله محمد، عاشق التأويل بين الواقع والمأمول قراءة في فكر الدكتور محمد عثمان الخشت، دراسة منشورة بكتاب عقلانية بلا ضفاف، الظاهرة الدينية والظاهرة السياسية في أعمال الخشت الفكرية، ط دار الكتاب العربي، دمشق – القاهرة، 2013م.
- عادل سالم عطية، من وحي للوحي معان أخرى قراءة نقدية للشكل والمضمون، كتاب عقلانية بلا ضفاف، الظاهرة الدينية والظاهرة السياسية في أعمال الخشت الفكرية، ط دار الكتاب العربي، دمشق – القاهرة، 2013م.
- عبير عبد الغفار، السمات المنهجية للدكتور محمد عثمان الخشت، كتاب عقلانية بلا ضفاف، الظاهرة الدينية والظاهرة السياسية في أعمال الخشت الفكرية، ط دار الكتاب العربي، دمشق – القاهرة، 2013م.
- عصمت نصار، تقديم كتاب عقلانية بلا ضفاف، الظاهرة الدينية والظاهرة السياسية في أعمال الخشت الفكرية، ط دار الكتاب العربي، دمشق – القاهرة، 2013م.
- عماد الدين عبد الرازق، رؤية تحليلية ونقدية لكتاب الشخصية والحياة الروحية في فلسفة الدين عند برايتمان، كتاب عقلانية بلا ضفاف، الظاهرة الدينية والظاهرة السياسية في أعمال الخشت الفكرية، ط دار الكتاب العربي، دمشق – القاهرة، 2013م.
- غيضان السيد علي، الخشت ووجه آخر للفيلسوف ظاهرة الاشتباه في الفلسفة الحديثة، دراسة منشورة بكتاب عقلانية بلا ضفاف، الظاهرة الدينية والظاهرة السياسية في أعمال الخشت الفكرية، ط دار الكتاب العربي، دمشق – القاهرة، 2013م.
- غيضان السيد علي، تحولات جارودي– قراءة في كتاب جارودي لماذا أسلمت للدكتور محمد عثمان الخشت، كتاب عقلانية بلا ضفاف، الظاهرة الدينية والظاهرة السياسية في أعمال الخشت الفكرية، ط دار الكتاب العربي، دمشق– القاهرة، 2013م.

(ISSN : 2536 - 9555)

- غيضان السيد علي، قراءة نقدية في كتاب تطور الأديان– قصة البحث عن الإله، كتاب عقلانية بلا ضفاف، الظاهرة الدينية والظاهرة السياسية في أعمال الخشت الفكرية، ط دار الكتاب العربي، دمشق – القاهرة، 2013م.
- محمود قاسم، جمال الدين الأفغاني حياته وفلسفته، القاهرة، ط الإنجلو المصرية، بدون
- مونيس بوخضرة، محمد عثمان الخشت فيلسوف الترحال والتأويل والجرأة، دراسة بكتاب عقلانية بلا ضفاف، الظاهرة الدينية والظاهرة السياسية في أعمال الخشت الفكرية، ط دار الكتاب العربي، دمشق – القاهرة، 2013م.
- نجلاء مصطفى، الأخلاق وعلاقتها بالدين في منظومة الخشت الأخلاقية، كتاب عقلانية بلا ضفاف، الظاهرة الدينية والظاهرة السياسية في أعمال الخشت الفكرية، ط دار الكتاب العربي، دمشق – القاهرة، 2013م.